

التاريخي والمتخيل في ثلاثية الجزائر

لعبد الملك مرتاض - الملحمة - الطوفان - الخلاص -

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي

مشروع : تحليل الخطاب والنقد المعاصر

رئيس المشروع : الأستاذة الدكتورة : خيرة حمر العين

إعداد :

إشراف :

الطالب : بن مصطفى محمد

الدكتورة : حليلة الشيخ

2015/04/19

لجنة المناقشة :

رئيسا

جامعة وهران

أ.د : عبد القادر شرشار

مشرفة ومقررة

جامعة وهران

د : حليلة الشيخ

عضوا مناقشا

جامعة وهران

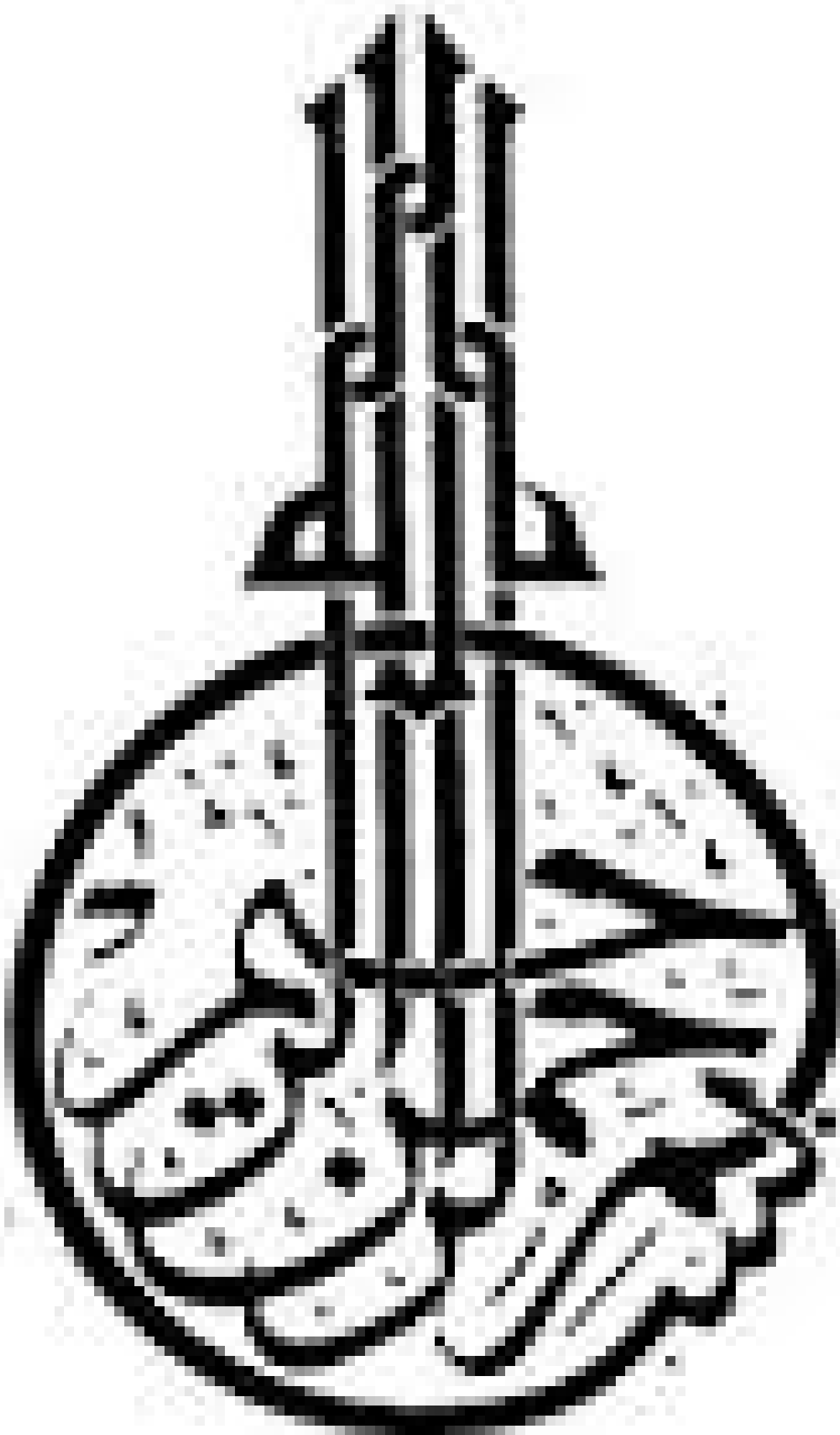
أ.د : خديجة زعتر

عضوا مناقشا

جامعة وهران

أ.د : خيرة حمر العين

السنة الجامعية : 2015/2014



الإهداء

إلى كل القلوب الدافئة

إلى كل العقول النيرة

إلى من سكبت لي من معين صفائها قطرات من الحب
ودفقات من الدَّم ، لأروي بها غراس جهدي فيزهر
نصنا في ريحانه وجنانه .

أهدي هذا العمل والجهد المتواضع ودا وعرفانا ...

من القلب إلى القلب

كلمة شكر

أتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذتي
الفاطمة المشرفة الدكتورة
حليمة الشيخ والتي كانت حقاً
المعلمة والمرشدة بعلمها وصبرها
وإصرارها على إتمام هذا العمل
إلى أن وصل إلى ما هو عليه الآن
كما أتقدم بالشكر الجزيل
إلى السادة الأساتذة بجامعة وهران
وإلى السادة الأساتذة
أعضاء لجنة المناقشة
ولهم مني أسمى عبارات
الشكر
والتقدير
والاحترام

مقدمة

بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد صاحب السراج المنير وعلى آله وصحبه ومن والاه بإحسان إلى يوم الدين .

تحتلّ الرواية الجزائرية مكانة مرموقة وسط الإبداع العربي الحديث وهي منذ تكوينها حملت آلام وأحزان وأفراح المجتمع الجزائري ، وقد ذاع صيتها وبلغ جميع الأقطار العربية من المحيط إلى الخليج وتربّع على عرشها الكثير من الأدباء الكبار من أمثال عبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار وواسيني الأعرج وغيرهم ...

كما استطاعت -الرواية الجزائرية - أن تثبت وجودها ضمن الأجناس والفنون الأدبية في العالم العربي وباللغتين العربية والفرنسية ، ناهيك عن الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية ، والتي هي الأخرى نقلت مآسي الشعب الجزائري أثناء فترة الاحتلال كما سايرت التحولات التي حدثت في المجتمع ومست جميع جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية .

وبما أن الروائي يعيش هذه التحولات فإنه بالضرورة سينقلها في إبداعاته وبذلك يساهم في إثراء هذا الفن ، وهذا ما جعل الروائيين الجزائريين يحذون حذو غيرهم من العرب والأوروبيين فنقلوا لنا كل ما يتعلق بالمجتمع الجزائري من تناقضات فكرية وإيديولوجية ووصف لشخصيات صنعت أحداث التاريخ الجزائري حيث أنتجوا حقلا جماليا وفنيا ميّزته ملامح حياة الشعب الجزائري في نضاله وكفاحه وثوراته المتلاحقة ضد الاستعمار الأجنبي .

وإذا كان كل مضمون يفرض شكله الخاص فإن مسؤولية الأديب تتضاعف خاصة إذا كان هذا المضمون يتعلق بالتاريخ الوطني والشخصيات التي صنعت هذا التاريخ في علاقاتها بالأحداث فمن واجب الأديب أن يتعامل ضمن هذا السياق في توظيف الأحداث التاريخية داخل النص السردي حتى لا يقتصر ذلك على الجانب الدلالي فقط بل يساهم في إظهار الجانب الجمالي للنص من خلال التركيز على طريقة التوظيف بين ثنايا المقاطع السردية .

وإذا كانت دوافع البحث العلمي قد فرضت منهجية ومضمونا على بحثي هذا ، فمن وراء ذلك أسباب دفعت بي إلى اختيار موضوع حساس وشاسع ورأيت أنه يكون موضوعا لدراستي ، أسميته " التاريخي والمتخيل في ثلاثية الجزائر لعبد الملك مرتاض " .

أما عن أسباب اختياري للثلاثية فيعود إلى اهتمامي بالرواية عموما والوقوف على أهمية تجسيد التاريخي في الرواية وكيفية توظيفه والتعامل مع العناصر المكونة لبنية النص الروائي معتمدا في ذلك الأجزاء الثلاث للثلاثية " الملحمة، الطوفان، الخلاص " .

المقدمة

تناولت الدراسة آلية التعامل مع التاريخي وماهية توظيفه وإركابه بالمتخيل للوصول إلى المقصدية الروائية من وراء هذا التزاوج الحاصل بينهما ، فتوظيف التاريخ غايته الكشف عن المسكت عنه لأسباب إيديولوجية ذات بعد وطني أو عالمي .

وقد حاولت الاستفادة من المنهج التحليلي في هذا البحث للوقوف على تجليات توظيف التاريخي وإحاقه بالمتخيل والكشف عن المغمور من التاريخ خاصة ما يتعلق بالأحداث البارزة التي اعتمدها المؤلف لإبراز ذلك وعلى هذا الأساس قامت إشكالية هذا البحث بسند يعتمد التساؤل لتحقيق الإطار النظري والتطبيقي للموضوع وفق جملة من الأسئلة .

- ما مدى توظيف التاريخ في الثلاثية ؟
- ما هدف التزاوج والتراكب بين التاريخي والتخييلي ؟
- ما مدى تلبس التاريخي بالتخييلي ؟

أما في ما يتعلق بالدراسات التي تناولت الإشكال الذي حاولت أن أثيره بهذا البحث ، فنجد موضوع " التجلي الآخر للتاريخ السياسي الجزائري غداة الاستقلال " قراءة في رواية "أصابع لوليتا" _لواسيني الأعرج_ وهي دراسة للدكتورة _هنية جوادي_ وتمثل أصابع لوليتا "مأساة تخيلية تنسج خيوطها من الماضي التاريخي الذي يلقي بضلاله على الذات الساردة ويهيمن على مجريات الأحداث في الرواية"¹.

كما نجد أيضا - وفي السياق نفسه - دراسة في العلاقات النصية وهي مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي من إعداد الطالبة -عذاوري سليمة - وإشراف الأستاذ- واسيني الأعرج- وهي دراسة حاولت " فك العلاقة المعقدة بين الرواية والتاريخ من خلال نص العلامة - بن سالم حميش - كنص روائي غلب عليه طابع التخيلي "²

ونذكر في نفس الموضوع دراسة مقدمة لنيل شهادة الماجستير موسومة بالشخصية التاريخية في الرواية الجزائرية وهوية الانتماء من إعداد الطالبة -سليمان فاطمة - تحت إشراف الأستاذ الدكتور - سعيدي محمد- كلية الآداب واللغات ، جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان - وهي دراسة تبحث في " آلية التعامل مع الشخصية التاريخية في العمل الروائي والبحث عن الأسباب التي تدفع بالروائيين إلى توظيف التاريخ "³ وتسخير في أعمالهم الروائية من أجل

¹ مجلة المخبر ، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري ، جامعة بسكرة ، الجزائر ، د هنية جوادي ، العدد العاشر 2014 ، ص 279

² الرواية والتاريخ ، دراسة في العلاقات النصية ، رواية العلامة بن سالم حميش نموذجا ، مذكرة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي ، إعداد الطالبة سليمة عذاوري ، إشراف الأستاذ واسيني الأعرج ، قسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة يوسف بخدة الجزائر .

³ الشخصية التاريخية في الرواية الجزائرية وهوية الانتماء ، إعداد الطالبة ، سليمان فاطمة ، إشراف الدكتور سعيدي محمد ، كلية الآداب واللغات ، جامعة أبو بكر بلقايد ، تلمسان .

المقدمة

الوصول إلى المقصدية الفنية والمتمثلة في الكشف عن المسكت عنه أو مقارنة ذلك بما كان في الماضي وما يكون الآن وما يصير في المستقبل .

كما يجدر بنا الذكر أن نشير إلى دراسة أخرى اقتربت من التاريخ وراكبته بالتخييلي والموسومة بالرؤية التاريخية في الرواية الجزائرية المعاصرة ، روايات - الطاهر وطار أنموذجاً - أطروحة مقدمة لنيل شهادة - دكتوراه العلوم - في النقد الأدبي الحديث من إعداد الطالب - عبد الرزاق بن دحمان - وإشراف الأستاذ الدكتور - الطيب بودربالة - جامعة حاج لخضر باتنة - تناولت هذه الرسالة " ناحية استراتيجيات تمثيل التاريخ وإثارة جملة من القضايا والأفكار ذات الصلة بالعمل الروائي بإظهار فكرة الزمن وأبعاده الفلسفية وكيف يمارس الروائي حضوره الوجودي في فهم سياقات الزمن الدال على استحضار التاريخ " ¹.

ونجد أيضاً الرسالة الموسومة بـ - بين الحقيقة التاريخية والمتخيل الروائي - في رواية - كتاب الأمير - مسالك أبواب الحديد - لواسيني الأعرج - من إعداد الطالب - السعيد زعباط - وإشراف الدكتور - عبد السلام صحراوي - وفيها سعى الباحث إلى " إبراز ذلك التناغم بين الفن والتاريخ في عمل أدبي ، وبيّن كيف يتعانقان ويرتمي كل منهما في حضن الآخر " ².

وقد ساعدتني الدراسات سابقة الذكر في رسم التصور الذي اشتغلت عليه ، و مكنتني من وضع خطواته ، أولها المقدمة التي تحاول الإلمام بخيوطه العامة وبسط أفكاره وإشكالاته، يليها مدخل يتناول الإشكال الإبداعي بين التاريخي والمتخيل الروائي في مسار التجربة الروائية وماهية التزاوج بينهما ، ومدى انعكاسات ذلك على عملية الإبداع الأدبي مع العلم أن غاية الروائي هي الوصول عن طريق المزج بين التاريخي والمتخيل إلى زعزعة المكرس وكسر الجمود التاريخي وتجاوز الرّسميات لبلوغ الغاية الفنية لرسالة الأدب بكشف الحقائق واستنطاق المسكت عنه أيديولوجيا .

ثم يأتي أول فصول البحث الذي خصصناه للرواية التاريخية مفهوماً ومضموناً بحكم أن الرواية هي خلاصة التحولات الفكرية والإيديولوجية والاجتماعية ، إذ أنّ الرواية لا تأتي صدفة وإنما في غالب الأحيان تأتي عن تزايد الحسّ الوطني والقومي لمجتمع ما ، وهي بذلك المفهوم ترسم فترة زمنية من الماضي وتعتمد على براعة الكاتب في إلbas التاريخ عباءة الأدب ، ومدى قدرته على إخراج القارئ من عالم الوهم والخرافة إلى عالم الحقيقة

¹ الرؤية التاريخية في الرواية الجزائرية المعاصرة ، روايات الطاهر وطار أنموذجاً، دراسة تحليلية تفكيكية ، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في النقد الأدبي المعاصر ، إعداد عبد الرزاق بن دحمان ، إشراف الدكتور الطيب بودربالة ، كلية الآداب واللغات ، جامعة حاج لخضر باتنة .

² رواية - كتاب الأمير ، مسالك أبواب الحديد لواسيني الأعرج بين الحقيقة التاريخية والمتخيل الروائي ، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب الجزائري المعاصر ، إعداد ، السعيد زعباط ، إشراف الدكتور ، عبد السلام صحراوي ، كلية الآداب واللغات ، قسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة منتوري ، قسنطينة .

المقدمة

المفعم بالخيال ،كما أشرنا في هذا الفصل إلى نشأة الرواية التاريخية في الأدب العربي والأدب الغربي .

وفي الفصل الثاني تطرقنا إلى المجال التاريخي في الثلاثية وأهم الأحداث البارزة فيها ، و قد وجدنا طابع المقاومة والثبات شغل حيّز الروايتين (الملحمة) و(الطوفان)بينما شغل حدث الانعتاق والحرية من شتى أنواع القيود التي فرضها الاستعمار الفرنسي على الشعب الجزائري حيّز رواية (الخلاص).

أمّا في الفصل الثالث فكان هدف البحث إبراز نوع العلاقة الكائنة بين التاريخي والمتخيل الروائي ، والتي نعتبرها علاقة تكامل وتوافق في إلياس الحقيقة ثوب المتخيل وتجلّي الوجه الحقيقي للتاريخ والشخصيات ذات التأثير الكبير في جلاء الصورة وبيان الحقيقة وإثارة جوانب المسكت عنه بسبب الإيديولوجية التي كانت وراء إخفاء الحقيقة وتغيبها عن الذاكرة الجماعية للأمم .

وبين أول خطوة وآخر خطوة واجه البحث كبقية البحوث بعض الصعوبات التي عرقلت مساره وكانت في معظمها صعوبات تتعلق بالمنهجية نظرا لضخامة الثلاثية من حيث الكم المعرفي الذي تضمنته من الجانب التاريخي بدء من الملحمة (الغزو الاسباني للجزائر) مروراً بالطوفان (الغزو الفرنسي للجزائر) وانتهاء بالخلاص (الثورة الجزائرية) رمز الإنعتاق والحرية.

ونضيف إلى هذه الصعوبة صعوبة التعامل مع النصوص المقتبسة من التاريخ والتي تضمنتها الرواية، ضف إلى ذلك ثقافة الكاتب الواسعة التي جعلتنا نلجأ إلى الكثير من النصوص ذات المصدر التاريخ والديني والشّفوي.

كما يمكن الإقرار بصعوبة ثالثة تمثلت في الوقت الذي لم يسعفني للاستفادة من جميع المصادر والمراجع ذات الصلة باعتبار أن موضوع التاريخي والمتخيل من المواضيع الجديدة التي أقحمت في الدراسات النقدية الحديثة، و تتطلب وقتاً وجهداً كبيرين.

ولا أملك في النهاية إلا الرجاء أن يكون هذا البحث قد وفق في الوصول إلى ما كان يصبو إليه منذ البداية وأن يجد فيه قارئه بعضاً مما يبحث عنه ، كما لا أملك إلا الشكر الذي أقدمه خالصاً وجزيلاً للأستاذة المشرفة – حليلة الشيخ – التي أحيي فيها حرصها الكبير على إتمام هذا العمل ورعايته وتشجيعها المستمر لي ولكل الطلبة والذي تعجز أمامه كل عبارات الشكر والتقدير .

كما أقدم شكري للأستاذة الذين أطروا السنة التحضيرية للماجستير 2011-2012 وفتحوا أمامنا باب البحث والتساؤل وعلى رأسهم الأستاذة- حمرا العين خيرة – المشرفة على

المقدمة

التخصص الذي أنتمي إليه الموسوم ب :- تحليل الخطاب والنقد المعاصر - مع امتناني الكبير إلى كل من قدم لي يد العون وساعدني على إتمام هذا البحث ماديا ومعنويا .

تيارت في: 2014/09/29

مدخل

المدخل

إن التفاعل التاريخي والروائي في مسار التجربة الروائية الحديثة ملأ حقل الإبداع الأدبي وأصبح أنموذجا من النماذج الخالصة لقراءة واعية للتاريخ، علما أن هذا الأخير بالمقارنة مع العمل الروائي لا يمكن أن يتزاجا أو يتميزا إلا من باب الكشف عن الحقائق التاريخية ولا يمكن القول أن الحكاية بعض التاريخ، ولا التاريخ بعض الحكاية، وقد أجمع النقاد على أن " الحكاية لا يمكن أن تنوب عن التاريخ ولا التاريخ ينوب عنها" ¹

من هذا المفهوم، ما طبيعة المتخيل الذي يجعل من الأحداث التاريخية موضوعا له ؟ وهل استطاع الروائيون المشتغلون في الحقل التاريخي أن يزاوجوا بين التاريخي والمتخيل في العمل الأدبي ؟

لقد قدم المختصون في المباحث السردية تمايزات مهمة تيسر إدراك الفروق بين السرد التاريخي *récit historique* والسرد الروائي *récitromanesque* - فجيرار جنيت - يقيم تعارضا بين السرد الحداثي *récit factuel* الذي يقدم نظام الأحداث اعتمادا على مصادر أخرى " والسرد التخيلي *récit fictionnel* الذي لا يعترف بالنظام التسلسلي للأحداث ، كما أن السرد الوقائعي (الحداثي) والسرد التخيلي يتميزان جوهريا لا باستعمال الانقطاعات الزمنية ولا بالطريقة التي بها أنهما يعلنان بها عنها " ²

وقد ذهب بعض النقاد المعاصرين في مسألة التاريخي والمتخيل وعن كيفية تراكبهما والجمع بين الواقع والمتخيل على خصوصية النص الأدبي بجماليته الفنية - ذهب بعضهم - إلى تأكيد هذه الحقيقة ، فالترابك بينهما لابد أن يؤدي إلى " زعزعة ما يكرس لا محالة خلق توازن على المستوى الفني " ³ وإذا كانت غاية الروائي هي الجمع بين الروائي والمتخيل وكسر جمود التاريخ الذي يكتفي بالرسميات فزعزعة المكرس ضرورة فنية على حد تعبير النقاد المعاصرين في غاية الفن " وسيلة من وسائل التبليغ (...) ذلك أن فلسفة هذا التبليغ في الفن تنهض على توظيف الجمال الفني أساسا " ⁴

¹ فريد الزاهي، الحكاية والمتخيل، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، بيروت 1951 ص 26 .

² ginnette girard , fiction et diction , seuil 1991 p 73 .

³ د ، آمنة بلعلي ، المتخيل في الرواية الجزائرية ، من المتماثل إلى المختلف ط 2 ، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع 2011 ص 55 .

⁴ د ، عبد المالك مرتاض ، نظرية النص الأدبي ، دار هوما ، 2007 ص 79.

المدخل

إنّ التفاعل بين التاريخي والروائي لا يعني التعارض بينهما فالتاريخي راصد للأحداث والمتخيّل يخلق بها ويضفي عليها طابع الجمالية " إذ أن وظيفة التبليغ تنهض أساسا على الفنية أي على الفرع إلى الجمال " ¹

وعليه فإنّ التراكب والتفاعل بين التّخيلي والتّاريخي مقصديته حفر أغوار التّاريخ والبحث عن الحقيقة وكشف ملاساتها وتثبيت الوقائع المسكت عنها والممنوعة إيديولوجيا في زمن ما ولذا فإنّ " المتخيّل بقدر ما يبدو في علاقة تعارض مع الواقع التاريخي بقدر ما ينهل منه عملياته وكل عملية من عملياته هي في نهاية الأمر تعبّر عن رؤيا خاصة للتاريخ والواقع " ²

إنّ يمكننا القول أنّ الأخذ بالمتخيّل في كتابة الرواية السياسية عامل أساسي في استنطاق التّاريخ، فالعلاقة جوهريّة بين التّخيلي والمرجعي الحي، علما أنّ هذا الأخير يدخل ضمن التاريخي والواقع المعيشي " وباعتبار هذه العلاقة شرط ثقافة المتداول والمهمّش " ³ لا ريب أن التاريخي بهذا المفهوم هو المهمّش ، أي ما سكت عنه المؤرخون في كتاباتهم إما بدافع إيديولوجي أو تقصير في استجلاء الحقائق لغياب المصادر الموثوقة فتغيب معها الحلقات المفقودة من التاريخ ولهذا فإنّ بعض النّقاد ذهبوا إلى ضرورة توظيف هذا المهمّش وفق التّخيلي بالاستناد إلى الشّفوي المخزون في الذاكرة الجماعية "فإني أحسب أن تلك المتون أصبحت الآن بحاجة إلى قراءة تأويلية بدل القراءات التقليدية ، لأنّ التأويل في حدّ ذاته يكسب شرعية تعاطي النص وفق روافد فلسفية وجمالية (...) مما يؤدي ضرورة إلى الدخول في دهاليز الجدلية المثمرة بين نظامية العقل وانهمار العاطفة والغرائز ، وذلك كله يتم وينجز في المتن الروائي على ضوء التّناسق والانسجام مما يؤصل للمتعة والاندهاش " ⁴

أي أنّ إثارة الاندهاش ثمرة من ثمار تلبّيس التاريخي بالمتخيّل وتوظيف عناصر الثقافة الإيديولوجية والسياسيولوجية والشفوية من أجل الوصول إلى الجمال الأدبي .

إنّ تفعيل عنصر الاندهاش في كتابة الرواية التاريخية جوهر الإبداع الأدبي ولبّ العملية في كليتها وجزئياتها " فالتاريخ رموز وحيوات مليئة بالحياة والإيحاء ، فليس مجديا إعادة تسجيله بهيكلة ولكن باكتشاف القدرات الحيّة الموحية والملهمة للإنسان " ⁵

و ممّا سبق فإنّ ثلاثية – عبد الملك مرتاض – تدخل في هذا السياق كونه استلهم التّاريخ ليصل به إلى أفق الكتابة والتأويل ويخرج بهما من دائرة التقليد إلى عوالم التّجديد

¹ لمرجع نفسه ص 83 .

² أمانة بلعلّى، المرجع السابق، ص 55 .

³ د ، يميني العيد ، الرواية العربية ، المتخيّل وبنيتّه الفنيّة ، دار الفارابي ، بيروت ، لبنان ط1 ، 2011 ص 15

⁴ أ د ، بشير بويجرة محمد ، المتن الروائي ، المخيال والمرجعية ، دراسات جزائرية ، دورية محكمة ، يصدرها الخطاب الأدبي في الجزائر ، جامعة وهران ص 153 .

⁵ عز الدين باي ، في الخطاب السرد ، دراسات جزائرية ، دورية محكمة يصدرها مختبر الخطاب الأدبي في الجزائر ، جامعة وهران ص 131 .

المدخل

وهذا يعيد رسم رؤية جديدة لكتابة الرواية التاريخية ، فهل استطاع المؤلف بذلك أن يصل إلى غاية المزاوجة وتلبيس التخيلي بالتاريخي ؟ وهل وفق في قصده من وراء ذلك ؟

إنّ الإجابة عن هذه الأسئلة توجب مراجعة عناوين الثلاثية ، و هو ما يسعى إليه الفصل الثالث من هذا البحث .

سمى – المؤلف- الجزء الأول من ثلاثيته بالملحمة وهي رواية تتجلى فيها صور كفاح الشعب الجزائري ضد الغزو الإسباني الذي ناهز الأربع مائة سنة .

فالعنوان وسم بالملحمة وكما هو معروف فإن مضمون الملاحم لدى الشعوب القديمة ناجم عن البطولات والمفاخر الذاتية لهذه الشعوب، ولعل تغني الشاعر اليوناني " هوميروس في إلياذته – وهي من أشهر ملاحم الشعوب القديمة – بالبطولات والمناقب الوطنية ، لدليل على ذلك ، فأين إذن تلنقي هذه التسمية في الثلاثية بالمعنى والمضمون الذي تحتويه الملحمة عموما ؟

تبدو المقاربة بينهما واضحة وجلية ، فما سجّله الشعب الجزائري في أطول مقاومة ضد أطول غزو (الغزو الإسباني) لأجيال متلاحقة أكبر دليل على بلوغ درجة الملاحم في الإخلاص إلى الوطن والاستماتة في الدفاع عنه في أطول وأعنف ملحمة في تاريخ الشعب الجزائري .

أمّا الجزء الثاني من الرواية فسماه "بالطوفان " فما أوجه التلاقي بين التسمية ورمز الطوفان ؟

إنّ وجه التلاقي يكمن في أنّ حيّز الطوفان كان الأكبر في التاريخ البشري ولعلّ طوفان سيدنا - نوح عليه السلام - وما خلفه من مآثر وعبر للبشرية جمعاء وقد ذكر القرآن الكريم ذلك ، وهو طوفان أغرق مناطق مأهولة حيث تدفقت المياه بقوة عجيبة من مناطق مرتفعة مغرقة الأراضي المنخفضة، فغرق الآلاف غرقا في لمح البصر ونجح آخرون في الهرب، فوجه التلاقي بين التسمية – تسمية الرواية بالطوفان – مع المعنى الوارد ذكره في القرآن الكريم يكمن في الآثار التي خلفها طوفان الاستعمار الفرنسي للجزائر من مآسي ما زالت آثارها بادية في حياة الجزائريين إذ مسّت جوانب حياتهم الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية .

قال تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

" كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوحَ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ (108) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (109) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (110) قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (111) قَالَ وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (114) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (115) قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَه يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116) قَالَ رَبِّ إِنْ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118) فَانْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ (119) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (120) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (121) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (122) كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (124)"

وسمى الجزء الثالث - بالخلاص - وهي بداية ونهاية المآسي في حياة الشعب الجزائري ، فما وجه التلاقي بين التسمية ومعنى الخلاص ؟

" الخلاص عند المسيحيين ، النهاية السعيدة للمؤمنين " ¹ خلاصهم من العذاب ، ومخلصهم في عقيدتهم هو من يعتقدون فيه الإله المخلص وهذا يتطابق مع معنى -الخلاص - في الرواية وهو خلاص الجزائريين بنهايتهم السعيدة في نيل استقلالهم بالسلاح والسياسة وخلاصهم من قهر وظلم وتسلط واستعمار واستعمار سلط عليهم أكثر من مائة وثلاثين سنة وهو ما جاء على لسان حاكية أخبار - المحروسة المحمية البيضاء - الأم زينب - "أم الثورات العظمى تحت شجرة الأرز الفرعاء ضواحي مدينة الأبطال السمراء ، بعد أن حكيت لكم أنتم حكاية طوفان الدماء ، تحت شجرة الدردارة في أم العساكر الخضراء " ²

وفي نفس السياق يقول - جورج لوكاتش - في ما يتعلق بالتزام الروائي بحقائق التاريخي و التخيلي والتفاعل بينهما: " يجب أن تكون الرواية أمينة للتاريخ ، بالرغم من بطلها المبتدع وحبكته المخيلة " ³

وبناء على ذلك ، ماهي العلاقة التي تربط المتخيل الروائي بالواقع المرجعي بصفة عامة ؟

¹ معجم الوسيط ، ط4 ، مكتبة الشرق الدولية ، مصر ، 2004 ، حرف الخاء .
² د، عبد الملك مرتاض ، ثلاثية الجزائر ، 2 الطوفان ، رواية في عشق الوطن و اللغة ، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع ، الجزائر ص ، 366 .
³ جورج لوكاتش، الرواية التاريخية، تر، صالح جواد الكاظم، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، 1986 ص 89 .

المدخل

إن الواقع الخارجي هو الواقع المُعَيَّن والواقع الروائي تعبير عنه لكن الصلة ليست مباشرة بين الكلمات والمرجع ، فيظل الجدل قائما بينهما حيث – " هناك في الحقيقة واقعان لا واقع واحد على الأقل في هذا المجال الذي نتحدث عنه ، هناك واقع الخطاب نفسه ، وهناك الواقع الإنساني الخارجي بكل ما يحدث من حياة وإنتاج وممارسات ، وإن يكن الواقع الروائي جزءا منها " ¹

على هذا يعتبر التخيل أساسيا في العملية الإبداعية لأن التجرد منه ينفي عن العمل الإبداعي فنيته ، ويظل المتخيل غير منفصل عن الواقع لأنه يعتبر ترميزا له ويبقى التخيل غير كامل في العمل الإبداعي إذ أن "النص الأدبي مزيج من الواقع وأنواع التخيل ولذلك فهو يولد تفاعلا بين المعطى والمتخيل ، ولأن هذا التفاعل ينتج شيئا أكثر من الفرق بين المتخيل والواقع فيستحسن تجنب التعارض القديم بينهما واستبدال هذه الثنائية بثلاثية الواقعي والتخييلي (وما نسميه من الآن فصاعدا) بالخيالي . وانطلاقا من هذه الثلاثية ينشأ النص " ².

في هذا الصدد ذهب الكثير من النقاد المعاصرين إلى تبيان حقيقة تفاعل وتراكب التاريخي بالمتخيل، والبحث عن علاقة الرواية بالتاريخ إلى إعادة التفكير في هذا الإشكال وطرح بالتساؤل: هل الرواية التاريخية هي التي تعتمد الحدث التاريخي مرجعية للحدث الروائي ؟ " وبالتالي فإن لهذه الحالة مرجعيتين: مرجعية حقيقية متصلة بالحدث التاريخي ومرجعية تخيلية مقترنة بالحدث الروائي " ³.

وظل الإشكال يراود النقاد في الجمع بين الحقيقة التاريخية والمتخيل الروائي في بناء النص ، وهو هاجس نقدي جوهره السؤال الآتي : كيف يشتغل الحدث التاريخي ضمن الحدث الروائي ؟ أي كيف يشتغل الحقيقي ضمن التخييلي ؟

فالروائي في انتخابه للأحداث التاريخية التي تشد النص ببنيتها العميقة والشكلية " يقدر المسافات ويشكل الألوان ويصور الأماكن والحالات ويركب الحوادث ، ويبني المشاهد ويتعمق في الأمزجة ، ويفسر المواقف ، ويصوغ ردود الفعل وينزل إلى حيث تمفصلات المجتمع في مكان وزمان معينين " ⁴.

وإذا كانت الرواية التاريخية حسب - جورج لوكاتش - بأنها " رواية تاريخية حقيقية ، أي رواية تثير الحاضر ، ويعيشها المعاصرون بوصفها تاريخهم السابق للذات " ⁵ فهي بالتالي " عمل فني يتخذ من التاريخ مادة له ، ولكنها لا تنقل التاريخ بحرفيته بقدر ما

¹ د ، حورية الظل ، الفضاء الروائي بين الواقع والتخيل ، المجلة العربية ، العدد 450 ، رجب 1435 هـ ، مايو 2014 م ص 47.

² المرجع نفسه ، ص 48

³ د، عبد الله الخطيب، الفضاء التاريخي في الرواية التاريخية ، بين علي أحمد باكثير و جورج زيدان نموذجا، رابطة أدباء الشام .

⁴ سيار الجميل، الفن الروائي لتاريخي العربي ، البيان ، مج 2 ، ع 26 ، 1999 ص 39 .

⁵ جورج لوكاتش، الرواية التاريخية، تر، صالح جواد لكاطم، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، 1986 ص 89 .

المدخل

تصور رؤية الفنان له وتوظيفه لهذه الرؤية للتعبير عن تجربة من تجاربه أو موقف من مجتمعه يتخذ من التاريخ ذريعة له¹

وقد أجمع النقاد المعاصرون على أن الرواية في أوضح تعاريفها وأكثر شيوعاً " كتابة نثرية تصور الحياة " ².

وعن أهمية الجانب التخيلي فيها باعتباره الجانب الأصيل الذي يؤسس لبناء روائي يرصد تفاصيل الحياة ويصور الواقع فقد ورد في هذا المجال " وأقصد به العالم الخيالي الذي يشكّل الكاتب منه صورة أو لوحة فنية تعبّر عن تجربة الكاتب وعن فكرة من ناحية ، وتحكي واقع المجتمع من ناحية أخرى " ³ فالجمع بين التخيلي والواقع يشكّل حجر الزاوية في العمل الروائي خاصة إذا اقترن بالجانب التاريخي ليرسم من خلاله الكاتب لوحة فنية تعبّر عن أحاسيسه ومشاعره المرتبطة بهذا الواقع ، وعادة ما يندفع المؤلف إلى رصد الصراع الحادث بين المجموعات البشرية للكشف عن الحقائق المغيبة عن الذاكرة الرسمية والشفوية معا .

كما شكل التراكب أو التفاعل بين التاريخي والروائي لدى النقاد المعاصرين هاجسا نقديا في تحديد المصطلح النقدي بين مصطلح الرواية التاريخية والتخيل التاريخي ففضلوا الثاني عن الأول لاعتبارات في الرؤى والتأويل والقراءة.

والتّخيل التاريخي في رأيهم أقرب إلى الجمع بين الأدب والتاريخ لبناء قراءة تأويلية نستطيع من خلالها الوقوف على الحقائق التاريخية التي تستنطق الماضي لتعيش في الحاضر وتصف الذات وتصل بها إلى المقصدية الأدبية من خلال المزوجة بين الأدب والتاريخ ، وقد نحى هذا النحو الباحث العراقي -عبد الله ابراهيم فرأى أنّه " أن الأوان أن يأخذ مصطلح التّخيل التاريخي مكان المصطلح الآخر المعروف بتعبير الرواية التاريخية ... فهذا الإحلال سوف يدفع بالكتابة السردية إلى تخطي مشكلة الأنواع الأدبية وحدودها ووظائفها ، ثم إنه يفكك ثنائية الرواية والتاريخ ويعيد دمجها في هوية سردية جديدة فلا يرهن نفسه لأيّ منهما ، كما أنه سوف يحيد أمر البحث في مقدار خضوع التّخييلات السردية لمبدأ مطابقة المرجعيات التاريخية فيفتح على كتابة لا تحمل وقائع التاريخ ولا تعرفها إنما تبحث في طياتها عن العبر المتناظرة بين الماضي والحاضر وبين التّماتلات الرّمزية فيما بينها فضلا عن استحياء التّأمّلات والمصائر والتوترات والإنهيارات القيمية والتطلعات الكبرى فتجعل منها أطرا ناظمة لأحداثها ودلالاتها ... فكلّ تلك المسارات الكبرى التي يقترحها التخيل التاريخي

¹ عبد الحميد عبد العظيم القط، بناء الرواية في الأدب المصري الحديث، ص 33.

² د- عبد الرحيم محمد عبد الرحيم - دراسات في الرواية العربية ، دار الحقيقة للإعلام الدولي ، ط 1990 ، ص ، 3 نقلا عن

Encyclopedia britannica . Volume 16:

³ المرجع نفسه ، ص ، 03 .

المدخل

تنقل الكتابة السردية من موقع جرى تقييد حدوده النوعية إلى تخوم رحبة للكتابة المفتوحة على الماضي والحاضر " 1

ويمضي د - عبد الله ابراهيم - ناقلا عن - بول ريكور - قوله: " فحياة البشر تدرك على نحو أسهل وأمتع حين يجري تمثيلها بالتخيلات التاريخية لأن فهم الذات هو عملية تأويل وتأويل الذات بدوره يجد في السرد واسطة بامتياز مفضلا إياها عن بقية الإشارات والعمليات والرموز ... وكلما جرى الحديث عن الرواية التاريخية وقع التفريق بين التاريخ الذي هو خطاب نفعي يسعى إلى الكشف عن القوانين المتحكمة في تتابع الوقائع والرواية التي هي خطاب جمالي تتقدم فيه الوظيفة الإنشائية على الوظيفة المرجعية " 2.

وفي سياق حديثه عن التاريخ رأى أنه " لا تفترض الكتابة عن التاريخ تمجيد الماضي ووضعه في علبة المقدس ولكن العمل عليه من أجل فهم المفاصل التاريخية المهمة التي يمكن للرواية الاستناد إليها بالتمحيص لمعرفة النواة الحاسمة في كل التغيرات اللاحقة ليس بالضرورة عملا مغرضا أو معديا للخطابات المتسيّدة " 3

أمّا عن مسارات الرواية الحيوية ومدى تلبس التاريخي بالروائي فإنه قال: " عندما تتم السيطرة على كل الخيوط المتشابكة تصنع الرواية مساراتها الحيوية فهي تدرج الوقائع التاريخية ضمن متخيل يعطي الإيهام بالحقيقة الموضوعية التي ليست مهمة إلا من حيث هي تعبير عميق عن لحظة متحركة في التاريخ تستطيع الرواية إلقاء القبض عليها في كامل توهجها. " 4

فالرواية والتاريخ خطابان تاريخيان يعملان بصورة موحدة على تأسيس خطاب لغوي غايته تمثيل واقع معين وتشبيد فكرة ما ، إلا أنّ الخطاب الروائي يأخذ موقعا خاصا في تشبيد الحقيقة الكونية ، لأنّ الروائي يشتغل وفق رؤيا شاملة كونية يتغلب فيها الجانب التخيلي على الجانب الواقعي ، في حين يستند المؤرخ على منظومة القيم والأفكار اليقينية ذات البعد المقصدي النفعي ، وعليه تتحول صورة الكتابة الروائية إلى متخيل داخل روح تاريخية الهدف منها هو محاولة صوغ الراهن أو الحاضر المربك ، الذي لا تنتضح معالمه إلا من خلال الماضي التاريخي .

ولا شك أن أساليب بناء التاريخ في الرواية له تقنيات وآليات معرفية تتصارع فيما بينها داخل بنية ذهنية تبدأ بنشائية: الجمالي والمرجعي، أو بين الماضي والحاضر ومن هنا تبدأ مغامرة الحكي.

1 د- عبد الله ابراهيم ، التخيل التاريخي ، محل مصطلح الرواية التاريخية ، جريدة الأيام العراقية ، الباحث ، العدد 5775 ، السنة 17 .

2 المرجع نفسه.

3 المرجع نفسه

4 المرجع نفسه

الفصل الأول

- تمهيد

1 - الرواية التاريخية.

1-1 - المفهوم والمضمون.

1-2 - نشأة و تطور الرواية في الغرب .

1-3 - نشأة و تطور الرواية عند العرب .

تمهيد:

لا بدّ من القول أن الأدب العربي الحديث لم يك في الكثير من الأحيان موائماً للتغيرات الداخلية التي تمر بها المجتمعات العربية ، وفي ظل ما نجده اليوم مع بداية القرن الواحد والعشرين الذي تشكّلت فيه مدارس أدبية عالمية ومذاهب متعدّدة ومتنوعة في أدب الشعوب لم تواكبها طبيعة جميع فنون الأدب العربي الحديث بسبب اهتمام العرب بفن أدبي معين على حساب فن أدبي آخر ، مع عدم مسايرة الإبداع العربي لحالات التفاعل التي حدثت داخل الواقع الاجتماعي وواقع السلطة السياسية والفكرية وتنوع الثقافات وصدّامات الحضارة والموروث التاريخي.

ولمّا نتحدث عن الرواية التاريخية يجب أن نفصلها عن بقية الفنون الأدبية الأخرى ذات الصلة معها كالمسرحية التاريخية والسيرة التاريخية والحكاية التاريخية والمقامة الأدبية والرواية السياسية والاجتماعية وعن كتابة المذكرات والبيوغرافيات الشخصية وعن القص التاريخي وأدب العجائب والأساطير، مع العلم أن فنّ الرواية يمكنه أن يشمل كلّ الفنون بالإضافة إلى جوانب أخرى ذات طابع تعليمي وإصلاحي وعاطفي وطابع المغامرات البولسية والخيالية.

فإذا كانت الرواية التاريخية تتفصل عن بقية الفنون الأدبية الأخرى من حيث الشكل والمضمون فإنها ذات صلة معها من جوانب أخرى لأنها في الأخير بمثابة البحث الذي يتزاوج فيه التخيلي بالواقعي بصرف النظر عن المرويات التاريخية للإنسان في مجال التاريخ ، هذا المجال الذي يجمع بين خصوبة الفكر والخيال وجغرافية المكان، فالرواية التاريخية فن لا يؤرخ للأحداث كما نعلم ولكنه تجديد فعّال لذاكرة الماضي بكل موارثه الحية المزدهمة بالشخوص والبطولات والتصورات والتباينات فهو فن يختزل الزمن ويوسّع المكان ويتجاوز السرد التاريخي والتراكيب الجامدة إلى الحقائق التاريخية بروحها الحية بعيدا عن الخيال الأسطوري وفضاءاته الواسعة بل هو فنّ يختص أيضا باللحظة التاريخية المنتهية في الذاكرة الجماعية مهما بلغت درجتها من الصغر والقلّة .

وإذا كان هذا الفنّ يستند على اللحظة التاريخية المنتهية في الذاكرة الجماعية فهو فن صعب التحقيق والممارسة مضمونا وإبداعا معقدا في إنتاجه، وكل ذلك ليس من أجل إدراك السرّ التاريخي بل من أجل إكمال الصورة الحقيقة أو الصورة الأخرى المقابلة للحقيقة أو المشكّلة من جزئيات ابتعدت عن الحقيقة، فالسؤال الذي يطرح نفسه أمام هذا الوضع أين يبدأ التاريخ في النص الروائي وأين ينتهي؟

الفصل الأول

إنّ الإجابة عن هذا السؤال هو رهان الرواية التاريخية في تعقّب الفراغات التي تركها التاريخ وأهمّ لها المؤرخون بالاستناد إلى بعض العلامات المضيئة في التاريخ ، و هو رهان بمثابة التّحدي الذي يحمله الروائيون الجدد في حقل كتابة الرّواية التاريخية وليس الغرض منه المعرفة التاريخية للحوادث بل الوقوف على الفراغات التاريخية التي أهمّ لها المؤرخون بتقليص المسافة بين السرد الروائي والسرد التاريخي فيظهر من وراء ذلك التاريخ الواقعي شفافا خلف لعبة السرد فتخرج بذلك الرواية من عالم الأحداث والشّهادات التاريخية إلى عالم التخيلي الذي بدوره يترك للقارئ حرية التخيّل والتصوّر والتأويل .

1- الرواية التاريخية

1-1- المفهوم والمضمون:

أضحى السرد الروائي من أهم قنوات التّواصل المعرفي في العصر الحديث كونه أداة من أدوات الاتّصال بين الجماهير علما أنّه مرآة عاكسة للتّحوّلات الإيديولوجية والسياسية والاجتماعية التي تحدث في المجتمع فالروائي ينزع عادة إلى رسم الأحداث والوقائع ويولع بها ليقدّم إلى القارئ خلاصة ذلك، عله يستطيع أن يفسر تناقضات الحياة وفق ما تقتضيه الطبيعة البشرية.

وقد لقت الرّواية كأسلوب سردي شهرة ورواجا بين الأوساط العالمية الغربية والعربية لما تحمله من ذخائر نفيسة وحقائق ذات بعد تاريخي واجتماعي ونفسي وعقائدي حيث استطاعت أن تقدّم صورا مختلفة عن الوقائع في الآداب العالمية، إذ نجد رواية - الصخب والعنف - ل - ويليام فوكنر - وهي رواية في التاريخ الأمريكي الحديث تعبر عمّا أصاب المجتمع من انكسارات في النظام الاجتماعي والسياسي بين الشمال والجنوب، ونظرا لأهميتها السردية وطريقة بنائها اصطلح النقاد المعاصرون على تسميتها ب - رواية الروائيين - .

إن الرواية هي خلاصة التحوّلات الفكرية والاجتماعية وقناة التعبير عن التفكير الجمعي والوضع الأخلاقي للمجتمعات، حيث تنوعت مضامينها بتنوع الانفعالات وردود الأفعال والحوادث التي يؤمن بها الروائيون ما أدّى إلى تنوع كتاباتهم وفق أحاسيسهم الوجدانية، ورؤاهم الخاصة ممّا نتج عنه أنواع منها الواقعية والوجدانية والبوليسية فالسّاخرة فالسياسية ... والذي يهتمّنا في هذا الفصل هو الرواية التاريخية.

إن الرّواية التّاريخية لا تأتي صدفة وإنما تبنى غالبا على تزايد الحس الوطني والقومي لمجتمع ما ، وكثيرا ما يؤثر ذلك التزايد على ايقاظ الوجداني والشعوري لدى الكاتب " فكأين من روائي حاول أن يرسم فترة من زمن التاريخ ، وأن يبرز وظيفة سياسية

الفصل الأول

أو دينية أو اجتماعية أو فكرية لشخصية من شخصيات هذا التاريخ أو يطمع في تخليد بيئة من البيئات ، فجاء بغير الحقيقة التاريخية ولم يعبر لدى نهاية الأمر إلا عن أيديولوجياه هو أو آرائه الشخصية غير الحيادية دون أن يكون بالضرورة قد عبر عن تلك الفترة ، أو عن تلك البيئة إلا في إطار أدبي خالص " 1

إنّ الرواية التاريخية بهذا المنظور رسم لفترة زمنية من الماضي مفعمة بالحسّ الوطني وإحياء لمآثر شخصية تاريخية وذكر لأفعالها وربط تلك الأفعال بالمحيط الذي عاشت فيه هذه الشخصية بقصد إبراز الجوانب الخفية التي أثّرت في تكوين تلك الشخصية.

وهذا ما أشار إليه بعض النقاد باعتبار " الرواية التاريخية لا تُعنى بتقديم الأحداث للقارئ بالدرجة الأولى لأن وثائق التاريخ كفيلة بأداء هذه المهمة، وإنما تكمن قيمتها في مدى براعة الكاتب في استغلال الحدث التاريخي واعتماده إطاراً ينطلق منه لمعالجة قضية حية من قضايا مجتمعه الراهنة " 2

والمهمة الأساسية الملقاة على عاتق كتّاب الرواية التاريخية تكمن في البراعة التي تؤتي لهم في استغلال الحدث التاريخي لإحياء الحس الوطني عند جمهور القراء ودفعهم إلى اكتشاف المزوجة بين التخيلي والتاريخي

وذهب بعض النقاد الغربيين إلى اعتبار أن الرواية التاريخية استطاعت أن تخرج من عالم الوهم والخرافة إلى عالم الحقيقة المفعمة بالتخيلي من أجل الوصول إلى المقصدية الفنية والغاية أصلاً من وجودها

وهي المهمة التي أوكلت إلى الأدباء الذين شغفوا بالرواية التاريخية، فهذا الكاتب الفرنسي – ألبيير باسي – يقول: " إن عالم الرواية في القرن السابع عشر كان عالم الوهم، فكان في الروايات بطولات تاريخية خيالية وأمور محشوة بالأمور الغريبة المدهشة المنبعثة من مخالفة للمألوف ولم يعرف الغرب الرواية بمفهومها الحديث وأصولها الفنية إلا في القرن الثامن عشر وفي القرن التاسع عشر بلغت نضجها. 3

إن ما يشدّ الإنتباه في قول – باسي – هو التطور الحاصل في الرواية الغربية وليس هذا هو موضوعنا وإنما من باب الإشارة فقط إلى أنّ الرواية التاريخية خرجت من عالم الوهم

1 د-عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية ، بحث في تقنيات الكتابة الروائية ، دار العرب للنشر والتوزيع ص ، 40

2 د-شفيق السيد ، اتجاهات الرواية العربية ، دار الفكر العربي ، ط3 197 ص ، 30

3 د ، شفيق البقاعي ، أدب عصر النهضة ، بيروت ، دار الجيل ط 1 ص ، 83 .

والغرائبية إلى عالم الحقيقة الذي يعتمد التخيل فضاء استراتيجيا غايته بلوغ الفنية والجمالية في الأدب.

1-2 نشأة وتطور الرواية التاريخية في الغرب :

قبل الحديث عن نشأة وتطور الرواية التاريخية العربية نشير إلى تاريخ هذا الفن السّردى عند الغرب باعتبارهم السّباقين إلى وضع الأطر الفنيّة التي أخرجته من عالم الوهم والخرافة إلى عالم الحقيقة التاريخيّة ، إذ أن الرواية كفن قبل اعتمادها التاريخ كانت تنكره وتتكر معه الإنسان والمكان والحقيقة " فالرواية الجديدة كانت متزاوجة مع التاريخ زواج وفاء ينشد العلاقة الحميمة بينها وبينه ، ولكن لعلها كانت مجرد مرحلة كانت الرواية فيها لا تفتأ غير واثقة من نفسها ولا موقنة من جمالها الفني وسلطانها الأدبي المنير " ¹

فالرواية التاريخية الغربية وبفعل التطور الحاصل في جميع مناحي الحياة والذي مسّ كلّ الأجناس الأدبية الأخرى كانت على المثل الأنموذج الأعلى لرصد الحقائق التاريخية خاصّة مع اندلاع الثورة الفرنسية والأفكار التي حملتها جعلت الأدباء يفكرون في ضرورة إلباس الرواية بالتاريخ في ظل الحركية الاجتماعية وصراع الطبقات شعوبا وأديانا حيث يعد - ولتر سكوط - (1832-1871) من أشهر الروائيين الذين طبعت أعمالهم بالنكهة التاريخية إذ " هو منشئ هذا النوع من الرواية " ² بروايته - warerley - وهذا ما جعل الروائيين الأوروبيين يقفون موقف الانبهار من النجاح الأدبي الذي حقّقه شيخ الرواية التاريخية في الغرب فتنّبّعوا خطاه وراحوا يعالجون في إبداعاتهم موضوعات تاريخية " فكتب بالزّاك - les chouan - وكتب - فيني - - cinq mars - وكتب - سطاندا - يوميات إيطالية - وكتب - فيكتور هيجو - notre dame de paris - و - l'homme qui rit - وكتب - جوستاف فلوبير - salambo - وكتب - جوتييه - le roman de la momie - وإيميل زولا - la conquête de plassans - وأناتول فرانس - les dieux ont soif " ³

وقد اقتربت هذه الروايات من التاريخ واختلفت من روائي إلى آخر في رصد الوقائع واتّخذت من الرموز مجالا خصبا لتأويل التاريخ وعرض الإيديولوجيات واتّخاذها إطارا خياليا لتفجير الحوادث التاريخية والتعبير عن الثورات المتلاحقة.

¹ د، عبد الملك مرتاض ، في نظرية الرواية ، بحث في تقنيات الكتابة الروائية دار الغرب للنشر والتوزيع ص ، 38-39

² المرجع نفسه ، ص 42 .

³ المرجع نفسه ، ص 43 .

الفصل الأول

كما عرضت الرواية التاريخية في الغرب الصراع الطبقي بين الطبقات الاجتماعية وحملته على عاتقها فنجد - فلوبير - حين كتب -سalambo- عام (1862) " كان أول من جعل من الطبقات كتلة شعبية وقوة محرك ذات بال " ¹

وقد تجاوزت الرواية التاريخية الغربية المرحلة التقليدية التي تحترم وتمجد التاريخ وتخضع الأحداث إلى التسلسل الزمني المنطقي الطبيعي وتقوم برسم ملامح الشخصيات وتعتقد بحقيقة وجودها في عالم الواقع بحكم أن التاريخ عبارة عن أزمنة وأمكنة وبشر يؤثرون فيه ويصنعون حوادثه - فقد تجاوزت بذلك - إلى مرحلة جديدة ترفض سلطة التاريخ وسلطانته وحاولت التخلي عنه والتخلص منه أحياناً والتشكيك في حقيقته فنجد الروائي يعبث بالزمن فتارة يؤخره وتارة أخرى يقدمه وتارة ثالثة لا وصف له ، فيصير الزمن اللازم ويرفض معه التاريخ وحوادثه المتسلسلة الخاضعة للزمن الطبيعي .

وهي بذلك تسمو بموضوعاتها لتحقيق أهداف ذات أهمية بالغة، إذ تسعى لإحياء وبعث ماضٍ تلد لقراءة الحاضر والمستقبل، ويكاد يجمع أغلب نقاد نظرية الأدب أن هذا الجنس الروائي يعتبر دخيلاً على الأدب العربي منقولا عن الأدب الأوروبي، رغم محاولة الروائي العربي تأصيله ببعث الماضي والتراث العربي، لكنه في واقع الأمر يجري موضة غربية أوروبية ظهرت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

ويعود الفضل في نشأتها إلى قصص الرومانسية والفروسية، لكن بعض الباحثين يرون أن القصص التاريخي كان شائعاً في القرن العاشر ميلادي "في تلك الملاحم التي كانت تنظم لتمجيد مآثر الأبطال كملحمة بيو ليف الإسكندنافية" ²

وقد أعلن جورج لوكاتش أن الرواية التاريخية نشأت في مطلع القرن التاسع عشر، لكن يمكن العثور على روايات ذات موضوعات تاريخية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ويستطيع الشخص أن يعتبر الأعمال القروسطية المعدة للتاريخ الكلاسيكي مقدمات للرواية التاريخية ³

¹ المرجع السابق ، ص 44 .

² مريم جمعة فرج " قراءة في الرواية التاريخية " مجلة البيان العدد 46 ، 26 نوفمبر 2000 الموقع :

<http://www.albayan.com.ae>

³ جورج لوكاتش: الرواية التاريخية، تر: صالح جواد الكاظم، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، 1986، ص11.

الفصل الأول

ومهما يكن من أمر، فتلك الملاحم تضاهي في الأدب العربي الأقاليم التاريخية التي كان يرويها - وهب بن منبه - وربما تتقدم عنها زمنياً وهي محاولات لا ترقى إلى مستوى الفن القصصي و الروائي لانعدام العناصر الفنية فيها.

و تنسب البداية الفعلية للرواية التاريخية في الغالب إلى الكاتب الأميركي - ستيفن كرين - برواية - شارة الشجاعة الحمراء - "ولكنها كانت تفتقر لبعض العناصر الروائية الشكلية والضمنية، فتكامل هذه العناصر الفنية نوعاً ما كان عند - والتر سكوت - الاسكتلندي الذي يعد أبا الرواية التاريخية برواية - ويفرلي - سنة (1814). بعدها ألف قرابة خمس وخمسين رواية تاريخية " ¹، وقد سنّ لمن بعده أصولاً فنية ظلت كتقاليد متبعة للرواية المتكئة على التاريخ في مختلف الآداب الأوروبية والعربية أيضاً أساسها الصدق والحبات الفجائية التي أرست دعائمها قبل - والتر سكوت - قصص الرومانسية والفروسية.

كان - والتر سكوت - كما يذكر - غنيمي هلال - " يتخيّر أبطاله من العصور الوسطى ويمزجها بشخصيات خيالية مختلفة نابضة بالحياة، غير متعارضة مع العصر التاريخي الذي يصفه، وبارعا في تصوير وتجسيد عادات وتقاليد وملابس ومقومات ذلك العصر متحايلاً على حقائق التاريخ " ².

وكما يقول - والتر سكوت - : «ليس معنى بساطة الشخصيات أنها تخلو من النفع والفنية لأنها تؤدي دوراً حيوياً وفنياً (...) وهي شخصيات غير تاريخية عادة يستخدمها الروائي في عمله الفني لتؤدي دوراً يستمد أهميته من السياق الروائي الذي اختاره» ³

و قد تزامنت روايات - والتر سكوت - مع الكتابات التاريخية لمؤرخي القرن الثامن عشر، منهم - فولتير - و - جيبون - اللذان رغم إجادتهما وتجديدهما لكتابة التاريخ " كان ينقصهما فهم نفسية العصور التي يصفونها وافقارهما للحاسة التاريخية التي تجعلهما يعتقدان أنّ الإنسان هو نفسه في جميع العصور بغض النظر عن التطورات التي تطرأ على العصر والتي تنعكس عليه " ⁴

هذه النقائص في الكتابات التاريخية جعلت كتابة التاريخ مملة لرتابتها كونها عبارة عن أحداث متوالية مكررة في كلّ العصور مع اختلاف الأبطال ، فهي مجرد هزائم وانتصارات

¹ مريم جمعة فرج، المرجع السابق، الموقع نفسه.

² غنيمي هلال، الرومانتيكية، دار العودة، بيروت، ط6، 1981، ص 213.

³ قاسم عبده قاسم، الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1979، ص188

⁴ المرجع نفسه ، ص189.

الفصل الأول

لا غير. وقد خطى - سكوت - بالتاريخ خطوات إلى الأمام ، وإن كان قد حرّف بعض حقائقه كما يذكر النقاد، إلا أنّه أدخل العنصر الفنّي والمنهج الأدبي في عرض أحداث التاريخ وأبطاله، ومختلف التغيرات التي تطرأ عليهم والتي تشمل العقائد والأفكار والأخلاق والعادات.

وصوّر - سكوت - التاريخ وجسّده بطريقة فنيّة أشدّ تأثيراً من كتب التاريخ الجافة " حتى ساد اعتقاد النقاد والباحثين أنّ روايات - سكوت - أقرب للحقيقة التاريخية من كتب المؤرخين " ¹ فأنّثر بذلك على مؤرخي تلك الفترة تأثيراً بالغاً حيث حدوا حدوه، وطفقوا يصورون أحداث التاريخ ويعيدون بناءها بقليل من الخيال غير الجامح، منهم - تيري إنجلينتون - و- جون شارل بينارد لي سيسموني - و- بريسكوت -.

وقد وجّهت انتقادات كثيرة ل - والتر سكوت - أشهرها التي وجهها له تين - Taine - بتزييفه للحقائق التاريخية إذ «كل هذه الصوّر من الماضي البعيد والتي يعرضها صور زائفة ليس فيها صحيح سوى الملابس والمناظر والمظاهر الخارجية " ² ومن أهم التغيرات التي مسّت الرواية التاريخية وتقاليدها ما نادي به - ألفريد ديفني - في فرنسا سنة (1825) بروايته - 5 مارس - فهو يجعل الشخصيات التاريخية في المحلّ الأول، في حين جعلها - والتر سكوت - في المقام الثاني والشخصيات الخيالية في المقام الأول، لكي لا يتقيّد بحقائق التاريخ . " ويرى ديفني أنّ ذلك يجعل الشخصيات التاريخية تتحرك على الأفق البعيد، ويكون محور الرواية الشخصيات الخيالية " ³

وأضاف - بلزاك - للرواية التاريخية ما يسمّى وصف تاريخ العادات حيث أصبح التاريخ هو المجتمع، " وبهذا يريد أن يسمو بالرواية إلى قمة التاريخ الفلسفية بإعطاء الصورة الكاملة لمدينة ما " ⁴. كما كتب أيضاً في فرنسا الأب - ألكسندر ديماس - التاريخ الفرنسي ، عام (1844) ابتداء من عصر - لويس الثالث عشر- حتى عودة الملكية ، وحقق نجاحاً منقطع النظير، ومرد ذلك كما يقول - فان تيغم - : " يعود لإحيائه الماضي الفرنسي وتمجيده لانتصاراته رغم عدم التزامه بالصدق التاريخي، وعدم دقته في التصوير مثل - سكوت - " ⁵

¹ المرجع السابق ، ص 189

² المرج نفسه، ص186.

³ غنيمي هلال: المرجع السابق، ص213.

⁴ فليب فان تيغم، المذاهب الأدبية الكبرى في فرنسا، تر، فريد أنطونيوس، منشورات عويدان، بيروت، لبنان، 1967، ص239.

⁵ المرجع نفسه ، ص 242 .

الفصل الأول

ويرى بعض النقاد أنّ - ديماس - يجعل التاريخ نصب عينه قبل فكرة الرواية التي لم يتّخذها إلا لمجرّد سرد الحادثة التاريخية، " فينسى أنّه روائي ويتقمّص أحيانا شخص المؤرخ، ربما لكونه كان يستعين في وضع رواياته وكتابة فصول الحادثة التي يختارها بالعديد من الكتاب الناشئين، يختص كل منهم بكتابة فصل من فصولها ¹، وبدأ الرّوائيون في أوروبا يتّجهون إلى هذا النوع الرّوائي المهم لما فيه من إحساس بالرّوح القومية الأوروبية ، وليبعثوا في الذاكرة الشّعبية المعاصرة تلك الظلال العظيمة والتذكير باللّحظات المجيدة في تاريخ أممها، فظهر - فكتور هيغو- برواية - أحذب نوتردام - في (1831)، وفي روسيا - ليو تولستوي - برواية - الحرب والسلام - وفي إيطاليا - ألكسندرو مانزوني - برواية - المخطوبين - عام (1923) مستحضرا أحداثا إيطالية تعود لقرنين ولعصور روما القديمة ، وفي ألمانيا نجد ألكسز برواية - فلادامور - عام (1824) ، و- ويلهلم هوف - برواية - ليشتونستان - ، وفي بولونيا - برناتويز - برواية - بوجاتا - عام (1826)، وفي الدانمارك ظهر - إنجمان- بروايات تاريخية عديدة.

وشهدت حقبة الثلاثينات من القرن العشرين أعمالا روائية رائدة نذكر منها ما جاء على يد الرّوائيين - كينيث روبرتس- و- روبرت جريفر - و- فورستر- ، وبعد الحرب العالمية الثانية تطوّر هذا الإنتاج الرّوائي التاريخي فظهر - هوب متز- سنة (1949) برواية - المحارب الذهبي - و- ماري رينولت - سنة (1950) برواية - الملك يجب أن يموت- وغير هؤلاء كثير ²

1-3 نشأة وتطور الرواية التاريخية عند العرب :

ارتبط ظهور الرواية التاريخية مع عصر النهضة وانفتاح العرب على أوروبا وهجرة الأدباء العرب إلى العالم الغربي خاصة الأدباء اللّبنانيين إلى الأمريكيّتين ، وتأثّرهم بالأداب الغربية على اختلاف أنواعها وأشكالها .

وقد تأخر هذا الظهور بفعل عوامل سياسية واجتماعية وفي هذا الشأن يقول الأديب محمود تيمور: " وفي ظلّي أن نهضتنا الحديثة لو كانت قد خلت من عصر القصّة الغربية ، من باب الفرض والتّخمين ، لما عجزنا في انبعاثنا الأدبي الجديد أن نخلق القصّة من وحي

¹ قاسم عبده قاسم: ، المرجع السابق، ص 189 .

² مريم جمعة فرح ، المرجع نفسه، الموقع نفسه.

الفصل الأول

الأدب العربي وحده ومن تراثه في ميدان القصة والأساطير وكان هذا الأدب على وفرة مآثوراته القصصية خليقا أن يشقّ لنا مجرى لقصة عربية جديدة الطابع والطرز " 1

ورغم الصعوبات التي واجهت نشأة وتطور الرواية التاريخية كغيرها من الأجناس الأدبية الأخرى ، إلا أن احتكاك الأدباء العرب بالغرب كان العامل الحاسم في تأسيس ونشأة هذا الفن وتطوير مآثره ، فالانفتاح والتطلع إلى الإبداع جعل الأدباء العرب يتوقون إلى الاستقلالية والمحاكاة ، و كان أسبقهم إلى ذلك الأديب " رافع الطهطاوي " الذي مال إلى الترجمة دون أن يتقيد بالروح العامة للنصوص التي ترجمها ، يليه - جورجى زيدان - الذي تأثر بالثقافة الغربية تأثرا بالغافحمل بين جنباته الروح الغربية وتجسدت في كتاباته ، و مثلهما - سليم البستاني - و - فرح أنطوان - ، أما الجيل الثاني الذي يمثل الثقافة الغربية بكل حيثياتها فنجد - المولحي - و - المنفلوطي - و - حافظ ابراهيم - و - أحمد شوقي - ، يليه الجيل الثالث و يمثلها طبقة الأدباء المجددين " حسين هيكل " و " المازني " و " طه حسين " و " توفيق الحكيم " و " العقاد " و " محمود تيمور " .

وقد ازدهرت الرواية التاريخية كغيرها من الأجناس الأدبية الأخرى في ظلّ الاحتكاك بالغرب والاطّلاع على الثقافة الأخرى ، وفي ظلّ تصاعد وتيرة المناهج الحديثة وما رافقها من ثورات فكرية وعلمية ميّزت العصر الحديث إذ " عمد الكتاب إلى التّأليف في هذا الفنّ من عند أنفسهم تقليدا للإفرنج ومن أقدم المشتغلين في ذلك - فرانسى ماراش الحلبي - ثم - بطرس البستاني - ألف بضع روايات تاريخية نشرها في - الجنان - ثمّ ألف صاحب - الهلال - سلسلة - روايات الإسلام - من أوّل ظهوره (...) وأقدم آخرون على التّأليف في هذا الفن وهو على كونه مقتبسا من الإفرنج " 2

وقد كان - جورجى زيدان - بارعا في المزج بين التاريخي والقصصي ، وأنت تقرأ له لا تشعر بالفصل بينهما وهذا ما ظهر في روايته التاريخية في شخصية - الحجاج بن يوسف - إذ ترى في هذه الرواية الصّور الرّسمية الجميلة وكأنك أمام رواية غرامية ، سرعان ما ينتقل بك إلى التّوتّر والصّراع دون شعور وهو يعرض لعلاقة - الحجاج - بابن الزبير - ولعلّ هذا المنهج التاريخي في التّأصيل للرواية العربية التاريخية يعود فيه الفضل إلى - جورجى زيدان - .

1 شفيق البقاعي ، أدب عصر النهضة ، بيروت ، دار الجيل ط1 ، ص 83 .

2 جورجى زيدان ، أدب اللغة العربية ، بيروت ، مؤسسة المطبوعات الحديثة ط1 ص 208-209 .

الفصل الأول

إنّ المزج بين القصصي والتّاريخي استوحاه - جورجى زيدان - من الثقافة الغربية وبالذات من التطور الذي حدث في الرواية التاريخية الغربية وانتقالها من مجال التقليد إلى مجال التّجديد ، من رواية تكتفي بعرض الأحداث والأزمنة والأمكنة إلى رواية تعبت بكل هذه العناصر وتهدف إلى الكشف عن أغوار التاريخ وعلاقته بالأوضاع الراهنة هذا جعل الكثير من النّقاد يصفون منهج - جورجى زيدان - في تأليف الرواية التاريخية " أنه يقص التاريخ وقلم المؤرخ في يده لا قلم الفنان المبدع ولعلّه في ذلك كان متأثراً بالنزعة الصحفيّة التي حاولت في ذلك الوقت تقريب النّقافة إلى عامّة النّاس وتبسيطها وتجميلها ¹ .

وقد تميّز - جورجى زيدان - عن غيره من الأدباء المشتغلين بالتّاريخ لكونه كان من السّباقين إلى توظيف التّاريخ في الحقل الرّوائي وغايته في ذلك كما يقول في هذا المجال " إذا سكبنا ذلك التّاريخ في قالب الرواية فإنه يقرأه القارئ بشوق ولذة فلا يلبث وهو يظن نفسه يطالع قصة فكاهية أن يتناول شيئاً من حوادث التاريخ يزيده رغبة في مطالعة تاريخهم ² " .

وقد امتد تأثير النّقافة الغربية من المشرق إلى المغرب وحطّ الرحال في النّقافة والإبداع الجزائريين ، فراح الأدباء الجزائريون يغرفون من الحوادث التاريخية التي حدثت إبّان المقاومة وخلال الثورة الجزائرية ما يحلو لهم من الحوادث ويلبسونها الثوب الرّوائي ، فمن الجيل الأول نجد - الطاهر وطار - و - بن هدوقة - و - مفلح - و - عرعار - و من الجيل الثاني نجد - واسيني الأعرج - و - خلاص - و - بقطاش - و - ساري - و - السّاحي - إلّا أن كتاباتهم وإن استندت على التّاريخ إلا أن " بعضهم أغرق في الدّاتية والمواقف الانفعالية من الثورة " ³ .

وقد تجاوزت الكتابة هذه المرحلة المعبّرة عن الإيديولوجية التي أضحت آنذاك مسرحاً للكتابة الرّوائية إلى مرحلة أخرى تعتمد آليات جديدة حاولت أن تستنطق التاريخ وتراكمه بالمتخيّل ، ويمثّل هذا الإتجاه " واسيني الأعرج في كتاب - الأمير - و " أول اتصال للرّوائي بالتاريخي تجلّى في تركيز السّارد على أطوار ثلاثة في حياة الأمير عبد القادر : طور توحيد القبائل لبناء دولة ، و طور محاربة الجيش الإستعماري ، و طور تسليم نفسه للفرنسيين وبقائه سجيناً في قصر - امبواز - قبل مغادرته فرنسا (...) وإذا كانت هذه الأطوار الثلاثة متعاقبة في منطق السّرد التاريخي (...) فإن إيراد الرواية لها لا ينحو هذا النحو في

¹ نبيل راغب، فن القصة عند يوسف السباعي، بيروت مكتبة الخليلي ص 286 .

² جورجى زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية، بيروت ، دار الأدب ج4 ص 663 .

³ د، أمنة بلعلّى ، المرجع السابق ، ص 55 .

الفصل الأول

التّرتيب الخطر للأحداث وفي تقصّي التفاصيل والجزئيات التي يكتمل بها تمثيل ما جرى في حقيقة التاريخ¹

إن هذا النحو الذي نحته الرواية العربية في المشرق والمغرب ناتج عن التّأثير بالثقافة الغربية وهو ما نجده عند " عبد الملك مرتاض " في ثلاثية الجزائر - الملحمة - الطوفان - الخلاص - الذي جمع وراكب بن والتّخيلي و التّاريخي للوصول إلى قراءة التاريخ وفق النظرة التأويلية .

كان ظهور الرّواية التّاريخية في الأدب العربي بادئ الأمر عن طريق التّرجمة والاقتباس، فالنّصف الثّاني من القرن التاسع عشر شهد نشاطا بالغا من التّعريب الرّوائي، فقام الأدباء العرب بالتّعريب والاقتباس في محتوى الروايات الأوروبية منهم - نجيب حداد - الذي عرّب - الفرسان الثلاثة - لألكسندر ديماس - و- صلاح الدين - ل- والتر سكوت - التي تصرف فيها وحولها إلى نصّ مسرحي، وفي سنة 1881 عرّب - قيصر زينية - رواية الكونت - دي مونتغمري - لديماس²

ويرى جورجى زيدان أن العرب رحبوا بالروايات الأوروبية التي رأوها ستحل محل القصص الشعبية الخرافية المتداولة بين العامة في تلك الفترة، كقصة علي الزبيق، والملك الظاهر ببرس، وبني هلال وغيرها، باعتبار الروايات التّاريخية الأوروبية أقرب للعقول بما يتماشى وروح العصر³ ولكون جورجى زيدان صاحب مجلّة الهلال التي كانت تنشر العديد من الرّوايات الأوروبية المعرّبة، فإنه أسهم في الكتابة الروائية المبكرة، وسيأتي الحديث عنها لاحقا.

ونتيجة هذا التّهافت على الرّوايات المعرّبة، برز سليم البستاني [1848- 1881] مترجم إلياذة - هوميروس- كرائد في الكتابة الرّوائية التّاريخية بروايات تدهش القارئ وتأتي بالمفاجآت على حد تعبير مارون عبود⁴ ولقد نشر إنتاجه الغزير من الروايات في مجلته - الجنان- منها التّاريخية - زنوبيا - (1871) ، - بدّور - (1872) و- الهيام في فتوح الشام - (1874) ، وقيل إن هذه المجلّة تعتبر المجلّة الأولى العربية التي اهتمّت بالروايات المترجمة

¹ أحمد الجودة ، تفاعل التاريخي والروائي في كتاب الأمير لواسيني الأعرج ،المركز الوطني للبحث والأنتروبولوجيا الاجتماعية ص 12

² عبد الله إبراهيم، السردية العربية ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2003، ص142.

³ جورجى زيدان: المرجع السابق ، ص 572، ص 573.

⁴ مارون عبود: رواد النهضة العربية، دار العلم للملايين، بيروت، 1952، ص195.

الفصل الأول

والقصص التاريخية ، والهدف الذي يتوخاه البستاني من أعماله الروائية هو التثقيف وتعليم التاريخ بالإضافة إلى توجيهه والإرشاد¹.

لكن هذه الأعمال الروائية لهذا الروائي الصحفي المستمدّة مادتها من التاريخ العربي الإسلامي كانت تقتصر للعناصر الفنية ، وساد عليها الطابع الاستطلاعي الصحفي أكثر من السردى مع تهويل الأحداث وتضخيمها وفي ذلك يقول يوسف نوفل : " من الحق أن نقرر أن السمات الفنية لم تكتمل لدى البستاني، إذ تفتقد للروابط والتحليل والاستبطان، وتلتقي بالسطحية والتفكك (...) وعدم رسم الشخصيات»²

ووسط تفاعل المرويات السردية التاريخية لسليم البستاني والمرويات المعربة التي شاعت في ذلك القرن والاقتراسات اللامحدودة، ظهرت روايات جورجى زيدان التاريخية [1861-1914]، ففي ثلاث وعشرين سنة ألف ثلاثا وعشرين رواية، سماها روايات تاريخ الإسلام منذ صدور أول رواية له - المملوك الشارد.

ويعتبر النقاد والباحثون أن زيدان هو الأب الفعلي للرواية التاريخية العربية، ورائدها الذي مهّد الطريق لغيره، وهو أول من أدخل هذا الفنّ الروائي للأدب العربي والسباق بوضع تاريخ أمة في سلسلة روائية.

وحاول - زيدان - من خلال هذه الأعمال الروائية جعل الفن خادما للتاريخ وغايته في ذلك تثقيف وتعليم النشء التاريخ على غرار قرينه - سليم البستاني- ، حيث يقول جورجى زيدان في ذلك : "إننا نتوخى جهدنا في أن يكون التاريخ حاكما على الرواية لا هي عليه كما فعل بعض كتبة الإفرنج، وفيهم من جعل غرضه الأول تأليف الرواية، وإنما جاء بالحقائق التاريخية لإلباس الرواية ثوب الحقيقة (...) وأما نحن فالعمدة في رواياتنا على التاريخ، وإنما نأتي بحوادث الرواية تشويقا للمطالعين، فتبقى الحوادث التاريخية على حالها، وندمج فيها قصة غرامية، تشوّق المطالع إلى استتمام قراءتها، فيصبح الاعتماد على ما يجيء في هذه الروايات من حوادث التاريخ مثل الاعتماد على أي كتاب من كتب التاريخ"³

وعليه نتساءل: ما فائدة الرواية إذا لم تضيف جديدا للتاريخ؟ أو ما الفرق بين الرواية والتاريخ ؟

¹ عبد الله إبراهيم، المرجع السابق، ص 237 .

² المرجع نفسه ، ص 238.

³ جورجى زيدان: الحجاج بن يوسف، المقدمة، دار الهلال، القاهرة، 1989، ص 6.

الفصل الأول

الرّواية عند زيدان هي وسيلة لتقريب التّاريخ، فوظيفة كتاباته ذات منحى تاريخي، " ومفهوم التّاريخ ملتبس بمفهوم الرواية في ذهنه حيث لم يع أن التاريخ بمحاولة نقله من سياقه كوقائع موضوعية إلى سياق سردي متخيل سيتحرك من مجال وينخرط في مجال آخر، فعدم وعي جورجى زيدان بهذا ليس لقصوره، وإنما لأن هذا السؤال لم يكن مطروحا ومثارا في عهده، فهذا الوعي بين الرواية والتاريخ حديث كما يذهب إليه - عبد الله إبراهيم ".¹

ويدرج - حلمي القاعود - روايات جورجى زيدان ضمن الرواية التّعليمية التي لا تتوفر فيها الأسس والمفاهيم الفنية لبناء الرّواية ، " وإنما هي مجرد وسيلة لتحقيق غاية، وهو ما سبق لزيدان التصريح به " ¹

وينتقد بعض الدارسين روايات زيدان لافتقادها للحقيقة التاريخية وتزييفها للتّاريخ الإسلامي، ويقول عبد الجواد المحص عن ذلك: "الروايات التاريخية لجورجى زيدان وضعت قصدا، وألفت عمدا لتشويه التاريخ الإسلامي، وتحريف حوادثه وهدم رموزه، وقلب أموره رأسا على عقب (...). نتيجة لخطّة مرسومة، شارك فيها المستشرقون والمتعصبون المعروفون بعدايمهم للإسلام وحقدهم على المسلمين " ²

ورغم هذا، فقد نال زيدان من عناية الكتّاب والدارسين ما لم ينله كتّاب آخرون أبدعوا الرّواية التاريخية، وعناية دور النشر بإعادة طبع رواياته حتّى اليوم ، ونقلها لمختلف اللّغات، هذه الرّوايات التي يقول عنها عبد الجواد المحص: "روايات خطيرة، تبث لقارئها السم في العسل " ³

ومهما يكن فالفضل يعود لجورجى زيدان في نشأة هذا النّوع الأدبي الهام وتطويره ورقّيته، حيث برواياته عكس بداية الشّعور القومي العربي وأصلّ للشخصية العربية الإسلامية، وما زال يؤثّر على الروائيين والقصاصين بعده من الذين برز لديهم وعي تاريخي حقيقي استطاعوا من خلاله كتابة نماذج روائية خالدة ، "نذكر منهم خاصة في مصر -محمود طاهر حقي - الذي بني قصته على مأساة - دانشواي - التّاريخية بروايته - عذراء دانشواي - عام (1906)، وكتب - علي الجارم - أعمالا تاريخية محورها التّعريف ببعض الشعراء

¹ حلمي القاعود: الرواية التاريخية، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة، مصر، 2004، ص320.

² مريم جمعة فرج، المرجع السابق ، الموقع نفسه.

³ المرجع نفسه، الموقع نفسه .

الفصل الأول

العرب مثل المعتمد بن عباد ب - شاعر ملك - و أبو فراس الحمداني في - فارس بني حمدان- و ابن زيدون في - هاتف من الأندلس- والوليد بن يزيد في - مرح الوليد -¹.

ويصنّف حلمي القاعود علي الجارم ضمن اتجاه الرواية التاريخية التي تهدف لتعليم الصياغة والأسلوب، باعتباره شاعرا ومن أعلام مدرسة البيان في النثر الحديث².

وآثر - محمد فريد أبو حديد - الكتابة في تاريخ العرب قبل الإسلام باختيار شخصية من شخصياته لجعلها محور رواياته، ومن أعماله الروائية المستمدة من التراث الشعبي - أبو الفوارس عنتره ، المهلهل سيد ربعة، الملك الضليل - مصورا البيئة المحيطة بالشخصية البطلة وصراعاتها مع الشخصيات الثانوية الأخرى، وغالبا ما تنتهي بموت البطل³.

ومن الجيل الثاني يقتحم علي أحمد باكثير التاريخ الإسلامي لينتقي منه قضايا وموضوعات روايته - وإسلاماه - عام (1952) التي استمدّت من تاريخ معركة عين جالوت مادتها محتفيا بفكرة الجهاد في سبيل الله مشيدا بانتصار المسلمين على التتار برواياته الكثيرة منها - سلامة القس و- الثائر الأحمر-⁴. ويقول باكثير كاشفا عن اتجاهه الإسلامي العربي في الرواية: " لعل اهتمامي بقضايا الأمة العربية ذو أثر في ولعي بالتاريخ واستلهامه (...) على أن هناك أسبابا أخرى منها: أن الفن عموما ينبغي عندي أن يقوم أكثر ما يقوم على الرّمز والإيحاء، لا على التّعيين والتّحديد"⁵

وعليه فالحقيقة التي يصوّرها العمل الأدبي أوسع من التي يصوّرها الواقع، والزّوائي هو الذي يبلغ هذه الغاية.

واقصر محمد العريان على تاريخ مصر الإسلامية، وخاصة في عهد المماليك والأيوبيين في رواياته - قطر الندى، شجرة الدّر، على باب الزويلة - وقد تغيّر مفهوم الرواية التاريخية عنده وأصبح التّاريخ المعتمد في الكتابة الروائية هو النّاس، فأصبحت تلك الكتابات تعكس تاريخ الطبقة العامّة من النّاس لا الأبطال المعروفين.

¹ حول هذا الموضوع أنظر سجل الهلال المصور (1892-1992)، ج1، الموقع:

[http://www.egyptana.egypt.com/egyptian collection/stories](http://www.egyptana.egypt.com/egyptian%20collection/stories)

² حلمي القاعود: المرجع السابق، ص 345

³ حول هذا الموضوع أنظر سجل الهلال المصور (1892-1992) ، ج1 ، الموقع :

[http://www.egyptoma.egypt.com/egyptian collection / stories](http://www.egyptoma.egypt.com/egyptian%20collection%20/%20stories)

⁴ محمد أبو بكر حديد: "هل انتهت مرحلة الرواية التاريخية؟"، لها أونلاين، 14 / 11 / 2002، الموقع:

<http://www.lahaonline.com/index.php>

⁵ المرجع نفسه، الموقع نفسه.

الفصل الأول

وتفرغ - عادل كامل - للتاريخ الفرعوني في روايته - ملك من شعاع - حيث جعل من - أخناتون - داعية من دعاة المحبة والسلام، متأثراً بنزعة شعبية داعية للفرعونية ، وفصل مصر عن العروبة¹ كذلك - عبد المنعم محمد - كتب رواية - إيزيس وأوزوريس - فهو يجول في عالم الأساطير والفتنات، ويذهب إلى أبعد من عادل كامل وكذا - عبد الحميد جودة السحار - الذي مارس القص التاريخي وأبدع بقصة أميرة قرطبة التي أراححت الغمام عن أسباب النكبات في الأندلس وقصة سعد بن أبي وقاص وغيرهم.²

أما - نجيب محفوظ - فلم يكن له هدف محدد يصبو إليه في كتابة المرويات السردية التاريخية ، فقد كان في ثلاث روايات هي - عبث الأقدار، ورادوبيس، وكفاح طيبة - من التاريخ الفرعوني، منساقاً وراء إعجابه بكتابات - سلامة موسى - ودعوته للفرعونية، وكان يميل للعبثية ومتأثراً بها إلى أبعد الحدود، وقد اعترف بهذا في مقابلة مع الناقد فؤاد دواره، قال فيها: " حينما أعود بذاكرتي إلى هذه السنوات، أجد أن باكثر السحار لم يداخلهما أي شك في قيمة إنتاجهما، ووجوب الاستمرار فيه، فكانا ممثلين بالتقاول، أما عادل كامل وأنا فكنا نعاني من أزمة نفسية غريبة جداً طابعها التشاؤم الشديد، والإحساس بعدم قيمة أي شيء في الدنيا، كنا كأبطال - كامي - قبل أن يكتبهم " ³

ولهذا السبب يرجع النقاد توقف نجيب محفوظ عن كتابة الرواية ذات الطابع التاريخي، بعدما صرح أنه سيكتب تاريخ مصر القديم في شكل روائي، كما فعل الروائيون الأوروبيون الأوائل من أمثال - ديماس وسكوت - .

وتجاوز- نجيب الكيلاني - قرينه بقدرات فنية عالية، وتقنيات سردية حديثة باتساع البعد المكاني لديه ، " حيث تطرق إلى كل البطولات التاريخية للعرب في كل أصقاع العالم الإسلامي بسرد الفتوحات الإسلامية في آسيا كما في رواية - عذراء جاكرتا - و - ليالي تركستان " ⁴، كما عرّج على الحروب الأهلية القائمة في دول إفريقيا الجنوبية منها رواية - عمالقة الشمال -، وقد قام بدور إيجابي فعال في النهوض بالأمة الإسلامية من خلال استثمار أمجادها لإيقاظ الأمة من سباتها العميق، واهتمامه بالقضية الفلسطينية في رواياته منها - عمر يظهر في القدس- .

¹ محمد أبو بكر حديد، المرجع السابق ، الموقع نفسه .

² السيد نجم: "إطلالة على الرواية التاريخية"، موقع: ميدل إيست أونلاين: ، 29 / 05 / 2005 / <http://www.meo.tv/id2005>

³ محمد أبو بكر حديد المرجع السابق، الموقع نفسه.

⁴ محمد أبو بكر حديد، المرجع السابق، الموقع نفسه.

الفصل الأول

وقد أحدث - جمال الغيطاني - مفهوما جديدا للرواية التاريخية فرواياته توهم بالإندراج في الماضي وتظل قائمة في الحاضر بوعيه التاريخي للتقنيات السردية الجديدة التي تحيل إلى أزمة متعددة كما في روايته - زيني بركات- التي مازج فيها بين النص الروائي و " النص التاريخي لابن إياس الموسوم بـ بدائع الزهور في وقائع الدهور" ¹.

وتجدر الإشارة إلى عَلم هام من أعلام الرواية التاريخية هو السّوري - معروف أرناؤوط - الذي كتب عن التاريخ الإسلامي أيضا، والواقع أن الرواية التاريخية في العصر الحديث " أصبحت تهدف إلى رؤية الوقائع والأحداث الحاضرة بمنظور السارد الذي لا يختزل إلى غيره وإلى قراءة الحاضر بالماضي، كما تضع في الماضي إشكالات الحاضر" ².

ومن الروائيين غير هؤلاء من كان يصبو لذلك مثل - واسيني الأعرج - يؤرخ لفترة الأزمة الجزائرية، بروايات منها - شرفات بحر الشمال، وذاكرة الماء- . ورغم قرب الفترة الزمنية التي يؤرخها فقد بحث في تاريخ الجزائر العريق واستنبط منه أعظم شخصية قاومت الاستعمار الفرنسي وأمنت بالتفاوض هي شخصية الأمير عبد القادر، فكتب الأعرج عنها رواية - كتاب الأمير - (مسالك أبواب الحديد) في 2005.

وكتب عبد الخالق الركابي روايات عديدة كانت خلفيتها التاريخية أحداث العراق. وقدم - عبد الرحمان منيف - تاريخا اجتماعيا في رواياته عن منطقة الشرق الأوسط، . وصور الروائي التونسي - البشير خريّف - التاريخ التونسي الغابر في روايته - البلّارة وبرق الليل -.

ونحى - نبيل سليمان - الروائي السّوري منحى قريبا ومتصلا بمنحى - عبد الرحمان منيف- ، ويستعيد الرّوائي - هاني الرّاهب - شخصيات - عيسى بن هشام - وأبو الفتح الإسكندري في روايته - رسمت خطأ من الرمال- نجد كذلك - سليم بركات- بـ -أرواح هندسية - وفي الإمارات يبرز - الشيخ القاسمي - الذي ألّف رواية - الشيخ الأبيض والأمير الثائر -

¹ حول هذا الموضوع ينظر: سعيد يقطين: (1) تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 1997. (2) انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2001. (3) (الرواية والتراث السّردى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2006. وينظر فيصل دراج: (1) الرواية وتأويل التاريخ، مرجع سابق. (2) نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1999. وينظر عبد الله إبراهيم: السّردية العربية، مرجع سابق.

² فيصل دراج: الرواية وتأويل التاريخ، مرجع سابق، ص 84.

الفصل الأول

وقد أثبتت الرواية التاريخية المكتوبة باللغة الفرنسية في الأدب العربي حضورها بشدة أوائل القرن العشرين بروايات الجزائري - محمد ديب - كالدار الكبيرة والحريق ، التي عبّر فيها عن معاناة الشعب الجزائري إبان الاستعمار الفرنسي، ومولود فرعون برواية - ابن الفقير - ، و- كاتب ياسين - برواية - نجمة - وغيرهم.

أما في لبنان فنذكر شكري غانم ب - دعد - عام (1908)، وخير الله ب: - قيس - ، و- جاك ثابت - الذي فتنته شخصية - أليسار - مؤسّسة (قرطاجة) التي تضحي بحياتها لأجل شعبها، مجد فيها أصول بلاده الفينيقية¹

ويشكّل - أمين معلوف - علامة مهمّة في الرواية التاريخية على مستوى الثقافة العربية والعالمية، فقد ألّف روايات عديدة ترجمت إلى لغات كثيرة منها :- سمرقند، لويون الأفريقي، حدائق النور - ، وغيرها، ورواية - موانئ المشرق - التي أرّخت لتاريخ القضية الفلسطينية. وما يميّزه عن غيره من الروائيين العرب نظرتة العالمية ورؤيته الكوزموبولتنية ودعوته للحوار بين الشرق والغرب وإيمانه بفكرة التسامح بين شعوب العالم.

ونستطيع القول أن الرواية التاريخية شاعت في الإبداعية العربية خلال فترات متلاحقة من القرن الماضي كمحاولة للبحث عن الذات القومية المنتصرة أو البحث عن دواء شاف للمحن التي تتعرّض لها الأمة، أو لأجل التمنيّ والحلم بالانتصار خلال فترات الانهزام، وتجاوزت ذلك في العصر الحالي حيث أصبحت تجسّد قضايا عالمية معاصرة بإسقاط ذاك الماضي على الحاضر وتفسيره.

¹ غالب غانم ،الأدب اللبناني المكتوب باللغة الفرنسية على امتداد القرن العشرين"، مجلة "العربي"، العدد: 515، 2001/11/1، الموقع: <http://www.alarabimag.net>

الفصل الثاني

- تمهيد

1 - المجال التاريخي في الثلاثية .

1-1 - التاريخ - المفهوم والمضمون

1-2 - الأحداث البارزة في الملحمة والطوفان

1-3 - المقاومة والثبات

1-4 - التاريخي في رواية الخلاص

تمهيد :

خطت الرواية العربية ذات البعد التاريخي خطوات عملاقة ومهمّة في عملية التأسيس والتأصيل في هذا النوع من الكتابة الفنية التي يترابط فيها التاريخي بالتخييلي ، وتميزت بأنماط متنوعة ، فمن رواية التوثيق التاريخي - وزير غرناطة - للروائي المغربي - عبد الهادي بوطالب - إلى رواية التشويق الفني للتاريخ لـ - جورج زيدان - وروايات التخيل التاريخي لـ - جمال الغيطاني - و - ثلاثية غرناطة لـ - رضوى عاشور - والروايات ذات البعد التاريخي على المستوى المرجعي كروايات - عبد الكريم غلاب - وروايات - نبيل سليمان - و - نجيب محفوظ - وغيرهم .

وعليه فإن الرواية العربية بهذا التوجّه وعلى اختلاف أنماطها النوعية والفكرية عبّرت عن تاريخ الأمة العربية وفي جميع ظروفها التاريخية ، فروايات - نجيب محفوظ - عبّرت عن تاريخ مصر منذ احتلال الإنكليز إلى لحظات الانتصار ومعاشة النكسات والنكبات والهزائم إلى سياسة الإنفتاح والتّعايش والتطبيع مع إسرائيل ، و تنقل لنا روايات - عبد الكريم غلاب - الروائي المغربي لحظات تاريخية عرفها المغرب منذ عهد الحجر على الاستقلال وما بعده ، فمن رواية تصوّر الصّراع بين المغاربة والمحتلّين إلى أخرى تركّز على نضال العمّال من أجل تأسيس نقابة وطنية حرّة ، إلى رواية تصوّر معاناة المغرب من جرّاء سياسة الاستغلال والتّغريب التي تبنتها الحكومة الاستعمارية ... كما ركّزت أخرى على الصّراع السّياسي والاجتماعي في المغرب خلال مرحلة السّنين والسّبعينات ... بينما اختارت أخرى معالجة موضوع الاستبداد والسّلطة ومصادرة حقوق الإنسان ، وجدلية المثقّف والسّلطة .

و في هذا الصدد ذهب - صنع الله إبراهيم - إلى القول أنّ " المؤرخ الجيد هو الروائي " ¹ ومنه يكون - بلزّاك - المؤرخ الحقيقي لفرنسا في - الكوميديا الإنسانية - بينما يكون - عبد الكريم غلاب - في روايته - دفنّ الماضي - المؤرخ الحقيقي للمغرب

¹ محمد عزام ، فضاء النص الروائي ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، اللاذقية ، سوريا ، ط1 1996 ، ص 178 .

الفصل الثاني

، ويعد - غسان كنفاني - المؤرّخ الحقيقي لفلسطين و-عبد الرحمان مجيد الربيعي - مؤرخ العراق و - نجيب محفوظ - المؤرخ الحقيقي لمصر ، و- نبيل سليمان - مؤرخ سوريا في جميع رواياته و - واسيني الأعرج المؤرخ الحقيقي للجزائر بروايته الحديثة - الأمير- و- الطاهر وطار - بروايته - اللاز - و-عبد الملك مرتاض - " بثلاثية الجزائر- الملحمة - الطوفان - الخلاص .

1 - المجال التاريخي في الثلاثية :

يعدّ المجال التاريخي في الثلاثية من أهمّ المجالات التي ارتكز عليها المؤلّف في كتابة الرواية ، و أهمّ الأحداث التي ألّمت بالجزائر في العصر الحديث ، و قد حاولت أن أجملها في هذه المراحل :

1- 1 مرحلة الدّفاع عن الوطن ضد الغزو الإسباني في حرب دامت أكثر من ثلاثمائة سنة أبان فيها الشّعب الجزائري عن قدرة واستماتة في الدّفاع عن الوطن منقطعتي النظير ، ومثّلها الرّوائي في الجزء الأوّل من الثلاثية وسماها - الملحمة - كناية عمّا استغرقت هذه الحرب الطويلة الأمد بين الإسبان والجزائريين .

1- 2 مرحلة العدوان الفرنسي على الجزائر ، وهي من أصعب المراحل وأشدّها شراسة حيث أظهر الكاتب فيها من خلال الرواية عن الأسباب الخفية لهذا العدوان وما انجرّ عنه من مآسي و آلام وأحزان ألّمت بالشّعب الجزائري مدّة الاستعمار ، وما واكب ذلك من مقاومات متلاحقة لم ينته لهيبها إلا بالانعتاق والاستقلال ، ومثّلها الكاتب في الجزء الثاني من الثلاثية وسماها - الطوفان - كناية عن الأهوال التي هتكت أعراض الشّعب الجزائري وألحقت به شتّى أنواع الدّلّ والهوان .

1- 3 مرحلة الثّورة والإعداد لها ، وهي المرحلة الحاسمة في حياة الجزائر المستعمرة ، فقد أظهر الكاتب ومن خلال الرواية عظمة الشّعب الجزائري الذي أنهكته المحن وذاق من ويلات السياسة العنصرية الاستعمارية في الجزائر ، فمن التّجديد الإجباري إلى سياسة طمس الشّخصية الجزائرية العربية الاسلامية فمثّلها الكاتب في

الفصل الثاني

الجزء الثالث من الثلاثية وسماها - الخلاص - كناية عن النهاية السعيدة للجزائريين من استعمار طويل جثم على صدورهم أكثر من مائة وثلاثين سنة .

ومن الملاحظ أن الكاتب اختار لهذا العمل الأدبي الضخم أبرز الأحداث البارزة في تاريخ وطنه الحديث والمعاصر إذ أعاد تركيب الأحداث في كل مرحلة زمنية مستعينا بالتاريخ الشعبي والشفوي والتاريخ الرسمي مبرزاً أهم الشخصيات التي حرّكت هذه الأحداث ك- لالة فاطمة نسومر - و - الأمير عبد القادر - و - مصطفى بن بولعيد - واستطاع الكاتب أن يظهر لنا التاريخ الشخصي والموضوعي بالاعتماد على الوثيقة المكتوبة والشفوية وإلباسها ثوب التخيل الإبداعي للكشف عن الحقائق التاريخية المهملة بين ثنايا التاريخ ولهذا يمكن لنا القول أنه استطاع أن ينقل لنا الكتابة في هذا الجنس الفني من الرواية التاريخية التقليدية تجريباً وتأصيلاً إلى رواية تاريخية حديثة قائمة على الإنزياح الروائي عبر التخيل التاريخي كخطاب جديد يجنّس لحوار بين التاريخ والخيال التاريخي أساسه التفاعل والتراكب والتزاوج ضمن نظرية القراءة القائمة على الهدم والبناء بين الماضي والحاضر لتأسيس رؤيا استشرافية لرواية تاريخية حديثة .

1-1 - التاريخ - المفهوم والمضمون :

عرّف - ابن خلدون - التاريخ " بأنه خبر عن الإجتماع الإنساني الذي هو عمران العلم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوجّس والتأنّس والعصبية وأصناف التغلّبات للبشر بعضهم على بعض وما نشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها " ¹.

قال الشاعر الفرنسي - بول فاليري - : " إنما لا نزال من التاريخ في حالة الإعتبار النظري والمراقبة المضطربة ، التاريخ يبرّر ما نريد ، إنه لا يعلم شيئاً بدقة

¹ ماهو التاريخ ؟ . شبكة التواصل الاجتماعي .

الفصل الثاني

وحزم لأنه يشتمل على كل شيء ويقدم المثل على كل شيء ، التاريخ أخطر محصول أنتجه كيمياء الفكر ¹.

إنّ التّاريخ هو تحليل وفهم الأحداث التّاريخية عن طريق منهج يصف ويسجّل ما مضى من وقائع وأحداث ويفسّرهما على أسس علمية صارمة بقصد الوصول إلى حقائق تساعد على فهم الماضي والحاضر والتنبؤ بالمستقبل، فالتاريخ هو السجّل البشري للحوادث في إطار الزمكاني، فهو مجموع ما توصلت إليه البشرية في صراعاتها منذ الأزل بين قوة وضعف، واستلاء واندحار فهو على حدّ تعبير الشاعر الفرنسي المذكور سابقا أخطر محصول أنتجه الفكر البشري كون أن التّاريخ يمثل الحدث بمظاهره الظاهرة والخفية وأحواله المتغيرة .

وفي نفس السياق يرى - فرنسيس فوكوياما - من وجهة نظر أخرى " أن كلا من- هيجل - و- ماركس - كانا يريان أنّ التّاريخ سيصل إلى نهايته حينما تصل البشرية إلى شكل من أشكال المجتمع الذي يشبع الإحتياجات الأساسية والرئيسية للبشر " ² وهو نفسه من الناحية النظرية لفكرة التاريخ على أنه " حركية تدفع بالبشر إلى التوسّع والبحث عن إشباع الرّغبات والغرائز التي تدفع بالإنسان إلى التوسّع والكسب المادي والتغلّب على الآخر ، كما يرى دائما أن نهاية التّاريخ عند - هيجل - الدولة الليبرالية وعند - ماركس - المجتمع الاشتراكي ³.

ولعل كل ما ذهب إليه - ابن خلدون - و - بول فاليري - يتناسب مع منطق التاريخ على أنه تدافع حركي بين البشر لا غاية له سوى الوصول إلى إثبات الكينونة والوجود ، وهي فلسفة تنطلق من طبيعة الفكر الدّاتي والثّقافة التي يؤمن بها هؤلاء ، أمّا ما ذهب إليه - فوكوياما - فهو التّاريخ الذي تحكمه البراغماتية النفعية كفكرة مادية ذات

¹ تاريخ ، ويكيبيديا ، الموسوعة الحرة .

² د- عبد الوهاب المسيري ، الحداثة وما بعد الحداثة ، دار الوعي للنشر والتوزيع ص 160 .

³ المرجع نفسه ، ص ، 160

الفصل الثاني

بعد إيديولوجي فلسفي يؤمن بأنّ للتاريخ نهاية تتجسّد في الليبرالية عند - هيجل -
والشيوعية عند - ماركس - .

وفي رأينا أنّ ما ذهب إليه - ابن خلدون - يتناسب مع منطق وجدلية التاريخ في
التّذافع والصّراع بين الأقليات والأكثريات و الأكثريات والأقليات في نفس
الوقت .

1-2- الأحداث التاريخية البارزة في الملحمة والطوفان :

إذا كان التاريخ منتوجا بشريا يوجد متى وجد الإنسان ، ويتّصف بالحركية
الأزلية ، فإنه يبقى ملهما ومجالا خصبا خاصة للأدباء على اختلاف مشاربهم وثقافتهم
وآرائهم ، فكذلك الأمر بالنسبة للروائي الجزائري - عبد الملك مرتاض - في ثلاثيته -
الملحمة و الطوفان والخلّاص - ، فما المجال التاريخي الذي اعتمده المؤلّف في الثلاثية
؟

ركز الروائي في الملحمة على حدث بارز و تمثّل في محاولة احتلال الإسبان
للجزائر والحرب الطويلة التي استغرقت أكثر من ثلاثمائة سنة " عاش الإسبان طيلة
فترة الاحتلال في حالة حصار وكان الجنود الإسبان يعانون حياة شاقة للغاية فأكلهم
رديء لا يقبضون مرتباتهم بانتظام (...) كان الجنود يموتون جوعا في وهران (...)
وأصبحوا يفرون من الجندية ليلتحقوا بالهند " ¹

إنّ هذا الغزو تدفعه أغراض دينية خفية صرّح بها دعائه : " إن إرادتنا الملكية قد
اقتضت أن لا تترك خارج كنيستنا المقدسة ، وديانتنا الكاثوليكية أي جزء من أجزاء
الأرض التي كانت لعناية إلهية قد وضعتها تحت سلطتنا " ² .

¹ أ.د. عبد الملك مرتاض ، الملحمة ، رواية في تجليات الوطن واللغة ، دار هومة للطباعة والنشر ، الجزائر ص 185

² المصدر نفسه ، ص 190.

الفصل الثاني

و قد جُهّزت لهذا الغزو كل الوسائل المادية و المعنوية من أجل الوصول إلى الهدف المنشود بطلب من الكنيسة المقدّسة "إن عددا عظيما من السفن المختلفة الأنواع والأشكال قد جمعت بأمرى في نفس المكان ، تحرسها سفن الأسطول الكبيرة والصغيرة ستحمل هذا الجيش العظيم حالا من أجل استرجاع مدينة وهران" ¹ حيث يقول المؤرخ - دوقرامون - : " نشر البابا يوم 18 جوان 1774 م بلاغا بابويا (BREF) ، يعلن فيه أنّه قد وهب الغفران والبركة السّماوية لكل مسيحي يشارك في هذه الغزوة" ².

فقد كانت هذه الحرب طويلة الأمد وشاقة الأنفس على الجزائريين حيث ثقفوا أنّها دينية خالصة تقودها الكنيسة لتحقيق النّصر ونشر الديانة المسيحية في أرض الجزائر ، إلا أن الأهالي أبانوا عن شجاعتهم في الدّفاع عن أرضهم وحققوا النصر على الإسبان " ولما أقبلت رسائل البشائر وتليت صحف فتحها على الأمير وعمّ الخطاب بالفرح جميع المؤمنين ، أمر الأمير نصره الله الداي - محمد بكداش - يصنع وليمة الفرح و عيده ، وتسريح من كان في همّ وعيده ، وتزيين سوق البلاد وتجديده ، وتعطيل البيع والشراء ، وقطع الجدال والمراء ورفع الأحكام ، وتنويع اللباس والطعام ... " ³.

إنّ إسبانيا لم يثن عزمها الهزيمة النكراء التي لحقت بها في هجومها على وهران ، بل شدّت العزم على مهاجمة مدينة الجزائر التي " قد علمت بأمر الإستعداد الإسباني وعرفت أن نفس مدينة الجزائر كانت هدفا لهذه المعركة الكبرى المنتظرة ، فاستعدت لتلقّي الصدمة أيما استعداد وتهيأت لملاقاة الجيش الغازي بما يرضي الشّرف وبما يرضي الوطن و الإسلام" ⁴.

وكان الأمر كذلك ، فقد أظهر الجزائريون قوة وصلابة في الدّفاع عن أرضهم " كبر على إسبانيا أن تتلقّى هذه الصّفحة من الجزائر وهي في أوج زهوها بانتصارها على الإنكليز فوجهت في الثالث عشر من جويلية 1783 م : أسطولا بقيادة - دون انتونيو

¹ المصدر السابق ، ص 191.

² المصدر نفسه ، ص 195 .

³ المصدر نفسه ص 208.

⁴ المصدر نفسه ، ص 229 .

الفصل الثاني

بارسولو - يضم أربع بواخر كبيرة وستّ مراكب حربية مزودة بالمدافع وبدأت الوحدات الإسبانية في مواجهة العاصمة يوم أول أوت واستمرت تطلق القذائف إلى اليوم التاسع من نفس الشهر وهو اليوم الذي انسحبت فيه بعد أن نفذت ذخيرتها ¹ .

أمّا الجزء الثاني والذي سمّاه المؤلف بالطوفان فقد ضمّنه أحداثا تاريخية بارزة شكّلت المحور الأساسي في وجود الجزائر الحديثة وهي رواية في عشق الوطن واللغة تعبّر عن الانتماء والاستماتة في الدفاع عن أرض الجزائر الطاهرة ، وأهمّ حدث ذكره المؤلف هو قدوم الجيش الفرنسي لاحتلال الجزائر والذي عبر عنه " بالطوفان الجارف الذي لا يبغي ولا يذر " ² .

وقبل هذا تجب الإشارة إلى الحدث التاريخي المغمور وهو حادث الجوسسة المتمثلة فيمن اتصفوا بالتدبير والتفكير فاختار المؤلف شخصية لهذا الحادث تمثلت في اليهودي - مورييس - "كان في الثلاثين من عمره كلّف بالجوسسة والإطلاع على الأمور السّرية الموجودة في الجزائر بعدما اعتنق الإسلام وسمى نفسه بالشّيح زكرياء " ³ .

وامتد هذا العامل إلى الاحتلال الفرنسي للجزائر، فقد مكن هذا الجاسوس الاستعمار بكل خبايا وأسرار المحروسة المحمية البيضاء واعتمد عليه في كل خطته الاستعمارية.

فالطّوفان القادم أشعل نار المقاومة لدى الجزائريين وما ذكره المؤلف استنادا إلى الوثائق التاريخية " وبعد - بوبغلة - ، تولت قيادة المقاومة البطلة - لالة فاطمة - التي سماها الكاتب الانكليزي - ليفيل باربوا - شبيهة - جان دارك - فبين سنوات (1851 م 1857) شنت فاطمة حربا عوانا ضد الفرنسيين الذين التجأوا بدورهم إلى طريقة - بوجو - الأرض المحروقة لوضع حد للثورة في عام 1857 كانت منطقة القبائل كلها في

¹ المصدر السابق، ص 270.

² أ.د. عبد الملك مرتاض، الطّوفان ، ص 257.

³ الملحمة ، المصدر السابق ، ص 257 .

الفصل الثاني

حالة ثورة بفضل الجهود الدينية والسياسية التي بذلتها جمعية الرحمانية تحت قيادة - فاطمة - ، وعندما أحس الحاكم العام الفرنسي للجزائر - الجنرال - زاندون - بالخطر الداهم ، قاد بنفسه حملة تتكون من ثلاثين ألف رجل ضد - فاطمة - وبعد معارك دموية نجح في أسر فاطمة ، وقمع الثورة وخلال هذه المعارك ربط 157 مسبلا جزائريا أنفسهم ، ثم ماتوا جميعا دفاعا عن قرية - تيشكرت - حيث كانت تعيش لالة فاطمة "1.

كما يذكر المؤلف ويبرز حدثا تاريخيا هاما لطالما أهمله المؤرخون " كان كبير شيوخ المحروسة المحمية البيضاء هو المسؤول الأول عن هذه الجريمة الإمّرة التي تعرض لها آباؤنا الأكرمون فاحتلت ديارهم وهدمت مساجدهم ، ونهبت منهم أموالهم وسبيت نساؤهم ويّتم أطفالهم وهم ينظرون لا إقصارا ولكن قصرا "2.

ولعل وكما ذكرنا سابقا أن عامل الجوسسة كان العامل الحاسم في حدث احتلال الجزائر " لقد نقل - الشيخ زكرياء - او- مورييس الجاسوس - - عليه لعنة السماء - كل تلك المعلومات التي تجسّس بها على المحروسة المحمية البيضاء إلى الكائن الغريب العنيد الذي سيجيئ من وراء البحر الغريب العنيد ... وضع بمقتضاها خطة حربية أفلحت "3.

ومن الأحداث التاريخية التي يذكرها المؤلّف ، وقصر في ذلك ، قوله : " وقد ورد في بعض الأخبار التي سها عن ذكرها التاريخ ، أو تخرج منها فسكت عنها ، واستأثّر بذكرها الحكاة أن القنصل - دوفال - التاجر الطمّاع - أغرى اليهودي - بكري - بأن يشدّد في المطالبة ويلحف في المساءلة وذلك ابتغاء تحصيل ماله مما كان باع للكائن الغريب العنيد ، الذي عزم على غزو آبائكم الأكرمين من القموح ، إذ كان كبير شيوخ أم المدائن الكبرى هو الضامن أصلا ، كما جرت العادة في أصول العلاقات التجارية بين الدول لمال اليهودي - بكري - الذي كان شؤما على أهل المحروسة المحمية البيضاء (...). فغرق فيه آباؤكم الأكرمون إلى أرقابهم (...) علما أن اليهودي جاء أصلا من جنوب

¹ الطوفان ، المصدر السابق ، ص 56 .

² الطوفان ، المصدر السابق ، ص 73 .

³ المصدر نفسه ، ص 74 .

الفصل الثاني

إيطاليا ، (...) كما كان كبير شيوخ أم المدائن الكبرى مثله أيضا ، فتسبب ذلك اليهودي الأوربي الأصل في الطامة التي صعدت المحروسة المحمسة البيضاء¹.

وقد تناولت الرواية بين ثناياها الكثير من الأحداث التاريخية الهامة " ويقال في كتب التاريخ التي لا ينتمي كتابها إلى المحروسة المحمية البيضاء أن كبير شيوخ أم المدائن الكبرى لم يكن براء ، بتهوره وطمعه (...) في تعجيل الإحتلال الذي كان تقرّر قبل وقوعه في الحقيقة منذ الأزمنة الطولى² .

وأبان المؤلف عن ذكر الأحداث التي سكت عنها التاريخ ولم يوليها المؤلفون اهتماما " أن الدولة الحامية التي كان ينتمي إليها كبير شيوخ أم المدائن الكبرى، قد تكون هي التي أغرت الكائن الغريب العنيد بأن يحتل أرض المحروسة المحمية البيضاء³.

وقد قصد المؤلف إلى تبيان الأسباب الخفية للاحتلال عن طريق المتن الحكائي لبلوغ الغاية من وراء اعتماد التاريخ لخدمة الفن والأدب وخصّص مجالا واسعا لدور اليهود في هذا الحدث الجلل الذي مسّ أرض الجزائر المتمثّل في الاحتلال الفرنسي بدءا من الشيخ زكرياء - مورييس الجاسوس - وانتهاء ب -يعقوب كوهين بكري - و - ميخائيل أبي زناك - .

و لذلك فإنّ كتب التاريخ والمذكّرات التي كتبت تحت صفة - شاهد عيان - تجمع على أن يهود المحروسة المحمية البيضاء كانوا "يجتنون الثمرة ويعضدون الشجرة ولا يعنيه من مصير الشجرة شيئا أن تيبس أغصانها أو تخضر أوراقها ، كان ذلكما عندهم سواء"⁴.

¹ الطوفان ، المصدر السابق، ص 88 .

² المصدر نفسه ، ص 92 .

³ المصدر نفسه ، ص 92 .

⁴ المصدر نفسه ، ص 95 .

الفصل الثاني

كما كان التواطؤ باديا بين كبير شيوخ أم المدائن واليهود لما ثبت أن الأهالي ضاقوا باليهود ذرعا وراحوا يكشفون جوسستهم وخطرهم على الجزائر " مما حمل كبير شيوخ أم المدائن المدائن الكبرى على الإنتقام من آبائكم (...) فحشر منهم خلقا كثيرا (...) ثم شرع يبيد منهم كل يوم عشرة صبرا¹.

وهذا دليل على مكر اليهود في الإطاحة بالدولة الجزائرية ، لأنهم عرفوا عند الناس جميعا بمكرهم وحيلهم وأكلهم لأموال الناس بالباطل " أموال الناس بأنواع الحيل والدعوى الباطلة"².

ومن العوامل التاريخية التي ذكرها المؤلف وأدت إلى انكسار قوة الجزائر في عرض البحر وسلطة أسطولها هو ضعف حكامها في هذه الفترة التاريخية، فكان همهم جمع المال والطمع والتهور" وضعف الشخصية فلا يميزون بين شؤون الدولة وما تقتضيه من حكمة وحزم ودهاء وشؤون الأسرة وما تقتضيه من حب وحنان"³.

فقد أدى ذلك إلى عزل قائد أركان الجيش في الجزائر - الآغا يحيى - واستبداله بصهر كبير شيوخ المدينة - الآغا ابراهيم - مما سهل عملية احتلال الجزائر في وقت وجيز " وخشي المتآمرون أن تنكشف أفعالهم وأن يعود منافسهم إلى الحكم ، فحاكوا خيوطا جديدة واتهموه بأنه يتفاهم مع مختلف رؤساء العرب والقبائل ، وأن هؤلاء الرؤساء كانوا يزورونه ليلا ، وأنه يعقد الاجتماعات في بيته لمهاجمة الجزائر للاستيلاء على الحكومة وتعيين نفسه على رأسها وبالا اعتماد على هذه المزاعم قدّمت وثائق مزيفة تشبه الحقيقة وتم إقناع الباشا بأن الآغا السابق - يحيى - خائن فأمر بإعدامه "⁴.

ولم يكتف المؤلف بهذا، بل أمعن الحديث عن التواطؤ بين القنصل - دوفال - وخرناجي أم المدائن اليهودي الأصل بحيلة دست عن طريق - راحيل - ابنة اليهودي

¹ الطوفان ، المصدر السابق، ص 99.

² المصدر نفسه، ص 91.

³ المصدر نفسه، ص 116 .

⁴ الطوفان ، المصدر السابق ، ص 117 .

الفصل الثاني

الخرناجي بأن تقوم هذه الأخيرة بالوسوسة لابنة كبير شيوخ المحروسة المحمية البيضاء بعزل الآغا - يحيى - واستبداله بالآغا - ابراهيم - صهر كبير شيوخ المحمية البيضاء مما نتج عنه على إثر هذه الحيلة وقوع الطامة على رؤوس الأهالي " لقد حير هذا الرجل هذا القائد العجيب (...). كل مؤرخي المحروسة المحمية البيضاء إذ لم يكن غرا ولا خائنا حقا، فإنه كان قائدا معتوها! وإلا فلم كل ذلك الانتظار والترقب دون اتخاذ أي مبادرة حقيقية جريئة (...) للحيلولة بين الأعداء ونزولهم إلى أرض المحروسة المحمية البيضاء¹.

"لقد ذهّل الجميع أمام هذا الحدث وأسبابه وخفاياه وعجز التاريخ وأفصحت الكلمة عن المسكت عنه لم يرى الناس في التاريخ في ذلك العهد على الأقل احتلالا وقع لبلد من البلدان بتلك السهولة المريبة التي لا يصدقها عقل حصيد أبدا"².

كما أبدى المؤلف على لسان - الأم زينب - الأسوأ من كل ذلك أن " كبير شيوخ المحروسة المحمية البيضاء لم يحزن على ما جرى ولا أبدى أسفا (...) ولا ذرف دمعة حرقة على أم المدائن الكبرى التي احتلت³.

إن التاريخ لا يذكر هذا بل يكتفي بالحوادث الرسمية ، فتخلي كبير شيوخ أم المدائن عن مسؤوليته في الدفاع عنها جريمة لا تغتفر ، وعزل الآغا - يحيى - واستبداله بالآغا - ابراهيم - دليل على السّداجة والحكم بالرغبات والنوازع الشخصية .

كما سجلت الرواية حدثا تاريخيا تغاضى عنه التاريخ والمتمثل في إبادة جماعية لقبيلة في ضواحي أم المدائن وقد جاء على لسان - الأم زينب - قولها : " وأول ما ابتدؤا به ، ما اقترفوا من جرائم شنعاء في ضواحي أم المدائن الكبرى وكان بمثابة اعلان

¹ الطوفان ، المصدر السابق ، ص 152 .

² المصدر نفسه ، ص 158 .

³ المصدر نفسه ، ص 158 .

الفصل الثاني

الوجود والبقاء بأرض المحروسة المحمية البيضاء وذلك بأن عمدوا إلى قبيلة العوفية المسكينة (...) فأبادوها بالدم البارد ... على بكرة أبيها¹

1-3- المقاومة والثبات:

ما استند عليه المؤلف في الطوفان الوثائق التاريخية التي تثبت عزم الجزائريين على محاربة العدو وعدم الإستسلام ، وما ذكره المؤلف ثورة - الحاج علي بن السعدي- في جبال زواوة : " ثم زحف ابن السعدي بمجموعة إلى الجزائر وخيم بوادي الكرمة (...) وانفتحت أبواب الجزائر للوارد والصادر من القبائل المجاورة لها (...) وأما السيد - الحج علي بن السعدي - فإنه لما أحس من نفسه الكبر ولحقه الضعف والضجر ، ترك جبال زواوة ولحق سيدي الوالد في معسكر ، ولم يزل مشغلا بعبادة الله تعالى إلى أن قضى نحبه "2.

فالمقاومة والثبات أصبحت عادة الأهالي في أم المدائن فقد اشتعلت في كل مكان ، ولم يستتب الأمر للكائن الغريب العنيد للمحروسة المحمية البيضاء فقد قيض الله تعالى لهذه الأمة من يدافع عنها ويرسم لها طريق النجاة " وتندلع للمرة الأولى أكبر معركة حقيقية يخوضها الكائن الغريب العنيد مع المقاومين من رجال المحروسة المحمية البيضاء (...) ويكون فيها النصر لرجال المقاومة الوطنية التي انطلق عبد القادر في قيادتها وهو الفتى المغوار الذي أظهر شجاعة فائقة فقد طعن فرسه الأشقر ثماني طعنات ولم يسقط حتى أصابه أحد المرتزقة برصاصة في رأسه ، فهناك سقط الجوال الأشقر ، فجيء إلى الفتى القائد بجواد غيره وامتطاه ومضى في خوض المعركة بنفسه ... "3.

واستمر الصراع بين الأمير الفتى الشجاع ومرتزقة الكائن الغريب العنيد " وبعد أن خاض معارك طاحنة انتصر في معظمها أول مرة قبل أن يتقوى العدو العنيد وقبل أن

¹ الطوفان ، المصدر السابق ، ص 162

² المصدر نفسه ، ص 184-185

³ المصدر نفسه ، ص 196 .

الفصل الثاني

يملّ بعض من كان يعتمد عليه من رجاله ويتخاذل وقد استفحل الخطب وعظمت التضحيات فكانت تهتز لها الجبال الرواسي¹.

فقد ظل الأمير محاربا مجاهدا مدافعا عن أصالة شرف الجزائريين نحو سبعة عشر سنة واستقامت له حكومة وكون جيشا وأنشأ الدواوين . وسن القوانين وجمع الكثير تحت جناحه للدفاع عن أرضه وأهله ، وبعد استسلامه ، سيق الأمير مع عائلته والمقربين منه إلى فرنسا وعرضت عليه الأملاك والجنسية ولكنه رفض فقبل له من طرف الفرنسيين " وذلك بأن توطن نفسك على أن تجعل فرنسا وطننا لك ، فتطلب من الحكومة أن تعطيك أملاكا جيدة في أراضيها " ² .

فكانت ردة فعله بحزم وقطع " لو جمعت فرنسا سائر أموالها ثم خيرتني بين أخذها وأكون عبدا ، وبين أن أكون حرا فقيرا ، لاخترت أن أكون حرا فقيرا ، فلا تراجعوني بمثل هذا فإنه ليس عندي ، بعد هذا الخطاب ، جواب ، وإلى الله ترجع الأمور " ³ .

ومكث الأمير في سجنه زهاء خمس سنوات " إلى أن جاء اليوم الذي أطلق فيه سراحه مع أهله فكان أكبر الفارحين هي أمه التي لم تتمالك أن شكرت ملكهم شكرا خاصا وصارت تمشي مشيا سويا بعد أن كانت تتكى على عصا " ⁴ .

واختار الأمير وجهة الشرق حيث كانت رغبته الأولى قبل أن يغرب به إلى ديار الكائن الغريب العنيد " وهناك أصبح الأمير الشخصية الروحية والإنسانية والسياسية الأولى في تلك البلاد كلها حتى أنقذ بفضل هذه الصفات العالية خلقا كثيرا من النصارى

¹ المصدر السابق ، ص 222 .

² المصدر نفسه ، ص 287 .

³ المصدر نفسه ، ص 288 .

⁴ المصدر نفسه ، ص 297 .

الفصل الثاني

ممن كانوا يذبحون في الشام ذبح الشاء ! في فتنة هوجاء ، حمراء ، ضرمها جماعة من الطعام والغوغاء ، ويقال أنه أنقذ منهم على الأقل ستة عشر ألفاً¹.

4-1 - التاريخي في رواية الخلاص :

إن التاريخي في رواية الخلاص اعتمده المؤلف من خلال لغة السرد والإخبار عن الجرائم التي اقترفها الكائن الغريب العنيد وغايته في ذلك تجاوز مرحلة السرد التاريخي الخارجي الآلي إلى مرحلة الوعي الحقيقي للأحداث ، ورفع الغطاء عن جرائم الإستعمار في حق المغلوب على أمرهم " أما آباؤنا فويلي عليهم من الكيان الغريب الدار ! لقد قتلوا دون محاكمة (...) وأبيدوا إبادة جماعية "².

كما أبان المؤلف من خلال رواية الخلاص عن عمق المأساة التي حلت بالجزائريين بعد انطفاء جذوة المقاومة وتراجعها - أبان عن ما سكت عنه التاريخ واحتفظ به إلى أوانه ، فالخلاص رواية أضحت جزءاً من السجل التاريخي غير الرسمي الذي تجنبه المؤرخون عن قصد أو عن غير قصد " ذك الكيان الغريب الدار بمدافعه كل الذين حاولوا أن يقاوموه ليدحروه ، دكا فقتل منهم خلقاً كثيراً "³.

وأهم حدث تاريخي استلهم منه المؤلف أفكاره هو حدث الثورة - ثورة الخلاص - هذه الثورة التي اقتلعت الكائن الغريب الدار من جذوره وألقت به إلى المكان الذي انطلق منه " الجزيرة - الغربية العامرة - "ها قد تفجرت ثورة التحرير الكبرى كما يتفجر النهر العاتي بالدم القاني يفنى في رحم الأرض ليحيي الرفات ، فتنبعث القلوب الموات "⁴.

¹ المصدر السابق، ص 297 .

² عبد الملك مرتاض ، ثلاثية الجزائر ، 3 الخلاص ، رواية في عشق الوطن و تجليات اللغة، دار هومة للطباعة و النشر و

التوزيع ، الجزائر، ص 136 .

³ المصدر نفسه ، ص 138 .

⁴ المصدر نفسه ، ص 179 .

الفصل الثاني

وقد ركّز المؤلف في حديثه عن الثورة الجزائرية على شخصية بارزة في الحركة الوطنية الجزائرية ألا وهو القائد - مصطفى بن بولعيد - " كان مصطفى الثائر المولود بوادي الأبيض ذكيا شديد الذكاء صافي الذهن ، ثوري التفكير " ¹.

حيث ما فتى هذا الفتى وهو متواجد في ديار الغربية يحرض أبناء جلدته على المطالبة بحقوقهم المادية والمعنوية ، وهو يعلم أن ما تدّعيه السلطات القائمة باطلا وبهتاناً في وطنه الأم " ترك مصطفى الثائر الظلم في المحروسة الحبيبة المحمية البيضاء على بني جلدته متسلطا (...) فلما ذهب إلى حيث كان يعتقد أنه يجد العدل والمساواة بين الناس في نيل حقوقهم الدنيا ، لم ير مطبقا من كل تلك الشعارات الجميلة التي كان يسمعها من معلمهم في مدارسهم ، إلا على مواطنهم لَحًا ، وأما العملة من بني المحروسة الحبيبة المحمية البيضاء فإنم كانوا بمثابة مداخل متنقلة إذ كانوا يتعرضون للسل (...) ولفح نيران الأفران التي كانت ترد وجوههم البيض سودا وترد شعورهم السود بيضا " ².

كما وضّح المؤلف المعاناة التي لحقت بالثائر- مصطفى - أثناء إقامته للعمل في ديار الغربية فوصف العمارة التي كان يقطنها مصطفى مع رفقاءه " تلك العمارة المتقدمة التي كانت جدرانها تريد أن تنفض في أدنى اهتزازة أو أخف ارتجافه " ³ ، وهذا ما دفع به إلى التفكير في العودة إلى أرض وطنه بعدما رأى الظلم والقهر المسلط عليه وعلى أصحابه في ديار الغربية فخاطب أصحابه بخطاب سياسي يفوق سنه قائلا : " فالرجل الغربي يمكن أن يتقبل ألف صفقة وصفعة من ألف مروحة ومروحة ، إذا حوفظ على جيبه ممتلئا وإذا مكن من أرض يتحصن فيها مقيما ، فلم يكن حادث المروحة ، إذا إلا ذريعة واهية للعدوان علينا " ⁴.

¹ المصدر السابق، ص 270.

² المصدر نفسه ، ص 272 .

³ المصدر نفسه ، ص 274 .

⁴ المصدر نفسه ، ص 283 .

الفصل الثاني

و بلغة السرد صور المؤلف حياة الثائر - مصطفى - و بيّن مدى فضل أبيه عليه وإدراجه على حبّ الوطن والتفاني في خدمته فخاطبه قائلاً بما معناه " أن احتلال الكيان الغريب الدار للمحروسة الحبيبة لم يكن منطقياً ولا شرعياً وما ذكره التاريخ من أسبابه وظروفه لم يك سوى مزحة سخيفة من العسير تقبّلها (...) ولذلك كان لا يفتأ ، يأمل في أن تقوم ثورة عارمة قريباً يكون منها خلاصنا نهائياً¹.

وبعد حديث ذو شجون عن المحروسة الحبيبة البيضاء وعن أوضاع أهلها قرّر - مصطفى - العودة فقصّد صاحب المعمل يطلب منه أن يهيأ له مستحقّاته ، فأظهر الرجل الشّهم عن عقيدة راسخة وإيمان قوي بالانتماء إلى الوطن الذي ولد فيه وترعرع بين ريحانه ، فكان حوار مصطفى الثّائر مع صاحب المعمل يتعلّق بالوطن والإخلاص له وبالأوضاع التي آل إليها في ظل الاحتلال الفرنسي فقال مخاطباً صاحب المعمل " وعلى أن هذا الأمر قد حسم بضرورة تأدية الخدمة العسكرية تحت علمكم مضطراً²

فردّ عليه صاحب المعمل " اتزن وكن عاقلاً أتقول علمنا ! أليس علمنا هو علمكم أيضاً ؟ ألسنا نحن وأنتم سواء ؟! "³.

أطلق مصطفى ضحكة سخرية ثم خاطب رئيس المعمل قائلاً " هذه أكبر أكذوبة اقترفها التاريخ يا سيدي علينا ! "⁴.

هكذا قرر مصطفى العودة والالتحاق بالخدمة العسكرية الإجبارية الفرنسية وعمره لا يتجاوز اثنان وعشرون سنة " استدعي إلى الخدمة العسكرية في إطار التعبئة العامة في أثناء الحرب العالمية الثانية (...) وأرسل إلى وحدة المشاة في خنشلة ، ثم انتقل إلى قالمة مع وحدته وهناك بدأ النشاط السياسي حيث شرع في إذكاء الروح الوطنية لدى المجندين وتوعيتهم بما يعانيه وطنهم داعياً إياهم إلى التمرّد ضد الاستعمار فألقي

¹ المصدر السابق، ص 292 .

² المصدر نفسه ص 313 .

³ المصدر نفسه ، ص 313 .

⁴ المصدر نفسه ، ص 313 .

الفصل الثاني

القبض عليه وأدخل السجن العسكرية ، وفي سنة 1944 م أطلق سراحه (...) فرجع إلى الحياة المدنية بأريس وشرع في ممارسة تجارة الأقمشة ¹.

واصل الثائر مصطفى دوره التوعوي من خلال رئاسته لجمعية دينية هدفها إصلاحي وتقديم المساعدات الأدبية والمادية لأهالي المنطقة " فكان يقوم بالإصلاح بين الناس والأعراش ومحاربة الدسائس (...) لا سيما تلك التي كان يغذيها العملاء ويقومون بنشرها ².

وتسارعت الأحداث إلى أن جاءت اللحظة الحاسمة في التاريخ الوطني " عقدت اللجنة الثورية للوحدة والعمل أول اجتماع موسع لإطارات المنظمة الخاصة السابقين وبالأخص الذين يدعون إلى الثورة المسلحة (...) في 22/06/1954 م في منزل " إلياس إدريج " بالمرادية - الجزائر - تحت إشراف مصطفى بن بولعيد (...) حيث درست الخطة الثورية وتحضير برنامج العمل الثوري والحربي (...) والأهداف التي ترمي إليها. إنها اللحظة الحاسمة التي كان يحلم بها مصطفى " الآن تحققت انطلاقة ما كان لا يزال يحلم به فبات واقعا (...) الآن أنا أعيش عهد ثورة الخلاص الكبرى فعلا ، الآن انفصل زمن التاريخ عن التاريخ وتمثل في نفسه منعزلا ³.

وظلّ مصطفى على عهده بالجهاد والنضال إلى أن أُلقي عليه القبض " وشاءت الأقدار أن يلقي عليه القبض في منطقة - ابن قردان - قرب الحدود التونسية الليبية يوم الحادي عشر من شهر فبراير سنة خمسة وخمسين وتسعمائة وألف ⁴.

فبعد ما حكم عليه بالإعدام مع الأشغال الشاقة استطاع رجال الاتصال الثوريين أن يحرروه من السجن بحيلة وعبقريّة فائقة حيث قام أحدهم بزيارته في سجن- مدينة

¹ المصدر السابق ، ص 316 .

² المصدر نفسه ، ص 317 .

³ المصدر نفسه ، ص 338 .

⁴ المصدر نفسه ، ص 355 .

الفصل الثاني

الجسور المعلقة بأسماء السماء - وقدم له كيسا " فتح الكيس ألقى فيه بذلة عسكرية بدرجة ضابط في درك الكيان الغريب الدار ، فعجب لذلك وعلم أن في الأمر سرا عظيما " ¹

وبعد عودته إلى ساحة القتال والجهاد كانت نهاية البطل مصطفى بن بولعيد نهاية كل شهيد أبلى البلاء الحسن في سبيل عزة الجزائر " قرر القائد مصطفى بن بولعيد عقد اجتماع (...) للجهة الغربية بالجبل الأزرق في الثاني والعشرين والثالث والعشرين من شهر مارس لسنة ألف وتسعمائة وست وخمسين ب - تا فريت - وحضر كل من الإخوة مسؤولي النواحي (...) وبلغ عدد المجاهدين الذين قدموا مع مسؤولي النواحي في تلك الليلة حوالي ثلاثمائة مجاهد ، وشاءت الأقدار أن ينفجر المذيع الملعن في مقر القيادة على ابن بولعيد مصطفى في ليلة الثالث والعشرين من مارس سنة ألف وتسعمائة وست وخمسين واستشهد القائد بن بولعيد " ².

¹ المصدر السابق ، ص 359 .

² المصدر نفسه ، ص 359 - 360.

الفصل الثالث

- تمهيد

1 - المجال الروائي في الثلاثية

1-1 - الأم زينب والبدل

1-2 - الوحش الرهيب وحساء المدينة

2 - مخيال الحوار التمكّني والبيهيبي

2-1 - الأمير والموج والصخرة العبرودية

2-2 - المتخيل السردي

2-3 - المحكمة الأخلاقية والمتخيل السردى

2-4 - تلبيس الروائي بالتاريخى وجلاء الصورة

تمهيد:

يعتبر العجائبي الروائي ظاهرة حاضرة في الرواية العربية الحديثة ويتجلى ذلك من خلال اهتمام الروائيين العرب به عبر جنس الرواية، وهم بذلك يتجاوزون حدود التقليد الروائي القديم إلى ما هو جديد ومستحدث عبر مساءلة الواقع والتاريخ وإثارة عناصر الأسئلة التي تدفع بهذه الظاهرة عبر الرواية إلى مساهمة التطور الحاصل في الكتابة الإبداعية الحديثة وتفعيل العناصر البنائية وإعطاء تشكيلات مختلفة عن ظاهرة العجائبي داخل النص الروائي.

ولأن العجائبي يشكل وجوده ظاهرة سردية ترتبط بالمتخيل أدّى بالضرورة إلى اتّساع دائرة الإبداع والتخييل ومنه المتخيل السردية الذي ينطلق من العجائبي للوصول إلى تثبيت الحقائق التاريخية المرتبطة بالمتخيل العربي العام والمحلي، للتعبير عن رؤيا مغايرة تقدّم تحوّلًا في العلاقات بين عناصر المجتمع.

فإذا كان الطابع العجائبي قد وجد منذ القدم في جميع الآداب، وهو يدرج ضمن العجيب والغريب والخارق ، ومع ذلك فإن ظاهرة العجائبي في جنس الرواية قد تبلورت منذ القرن الثامن عشر على يد كتاب يوظفون عناصر هذا النوع من الحكى في التعبير عن رؤيا مغايرة تقدم تحولا بطريقة السرد مع الطبيعة وما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) ، والذات الخفية في علاقتها مع الآخرين وعلاقة الواقع باللاواقع وهو الذي يبرّر التحول لهذه الظاهرة من " متخيل سائب إلى جنس تخيلي يسنده وعي ولغة متميزة تكشف المجهول وتوسع من دائرة الأدب " ¹.

وإذا سلّمنا بحقيقة المفهوم السابق على أن العجائبي انتقل في الكتابة الحديثة من متخيل سائب إلى جنس تخيلي قائم بذاته - خاصة إذا كان الأمر يتعلق بتوظيف التاريخ في عملية الإبداع الأدبي - فهذا يتطلب من المبدع أن يكون واعيا بتاريخ أمته مدركا لأهميته في وجدان الأمة ، وهذا ما حاولنا أن نقف عليه في هذا الفصل من الدراسة والتي اعتمدنا فيها على تحليل العلاقة بين التاريخي والمتخيل من خلال ثلاثية الجزائر - لعبد الملك مرتاض - الملحمة - الطوفان - الخلاص - وإبراز الطاقات التعبيرية والجمالية التي حقّقها توظيف التاريخ في الرواية .

إنّ محاولة إبراز المسكت عنه في التاريخ جعل الكاتب ينجح إلى توظيف العجائبي متمثلا في - الأم زينب - والتي كانت تتردّد عبر الثلاثية وبين محطات تاريخية متلاحقة ابتداء من الغزو الاسباني الطويل للجزائر مروراً بالعدوان الفرنسي ووصولاً إلى الثورة التحريرية المجيدة ، وهي تحكي بصورة عجائبية لجلساء من شباب - شجرة الدردارة - بمدينة - أم

¹ تزفيتين تودوروف ، مدخل إلى الأدب العجائبي، تر ، الصديق بوعلام ، مراجعة ، محمد برادة ، القاهرة ، دار الشرقيات 1994 ، ص 7 من تقديم محمد برادة بتصرف .

العساكر - تحكي لهم - بطولات الشعب الجزائري في مختلف مراحل المقاومة للغزو القادم من - الجزيرة الغربية العامرة - تلك الشخصية التي رافقت الأحداث منذ وهلتها الأولى وأضفت على التاريخ الكثير من الخيال الهادف إلى إبراز الحقائق الغائبة في التاريخ الرسمي .

1- المجال الروائي:

بين المجال التاريخي و المجال العجائبي الروائي مسافة لا يمكن اختصارها و يصعب سبر أغوارها في بناء نص السرد الفني بآلياته الكثيرة، و هذا ما يجعلنا نرى أنه: "لا شك أن المتخيل يشتغل بآليات مختلفة تتحكم فيها الظروف السيسوثقافية إذ أصبح من البديهي القول إن الفعل التخيلي يتجاوز الواقع و يكون من المنطقي أيضا أن نتحكم في انتقاء المتخيل في رواية تجعل من الواقع موضوعا لها" ¹ .

وعليه فإن المجال الروائي العجائبي أو المتخيل السرد في أي عمل روائي يشكل حجر الزاوية في إضفاء جانب الجمالية والفنية وإن كان من البديهي أن يعتمد هذا العمل على الواقع أو التاريخ لينطلق منه ويعود إليه بصور و خيالات جديدة يدفع بالعمل الروائي نحو كشف أغوار الحقيقة "و إذا كان التاريخ كما يقول - مارت روبير - MART ROBERT - لا يقول إلا ما فعلته البشرية وأن الرواية ينبغي أن تقول ما تتمنى وما تحلم به" ² .

فلا شك أن العجائبي يثير في الملتقي الاندهاش والرغبة في المعرفة والوصول إلى فكّ الألغاز المطروحة في ساحة الواقع وتأويل الأطروحات التي تشغل عقل القارئ أحيانا وهو بتصفح التاريخ " فإذا كان الواقع والتاريخ يكرّسان تصرفات معينة فإن وظيفة المتخيل تكمن في زعزعة ما يكرّس لمحاولة خلق التوازن على المستوى الفني وبالتالي فالتخيل ليس محاولة إجرائية للتحليل لأنه يمتلك قوانين ثنائية حتى في فترة واحدة وإنما هو منطق ايديولوجي في الكتابة والقراءة" ³ .

وعليه فإن العجائبي أو التخيل الروائي لا منطق له ولا قانون ، تحكمه ايديولوجية معينة ترمي إلى التأويل والقراءة المغايرة التي تتجاوز الحوادث التاريخية وتصل إلى المقصدية من وراء السرد الروائي ، فمن الصعب الوقوف على تعريف دقيق لمفهوم العجائبي نظرا لتنوع موضوعاته وتعدد أساليبه وتداخل العلاقات فيما بين العالم الذي يقدمه الخيال من جهة وكيفية تأويله وقراءته من جهة أخرى ، و" يعد كتاب TODOROV - مدخل إلى الأدب

¹ د آمنة بلعي ، المتخيل في الرواية الجزائرية من المتماثل إلى المختلف ، دار الأمل للصناعة والنشر والتوزيع، ص 51.

² المرجع نفسه ص 51، نقلا عن مارت روبير ROMAN DE ORIEN ET ORIENES DU ROMAN PARIS 1992 P 26

³ المرجع نفسه ، ص 55 .

العجائبي - INDRODUCTION A L'ETAT TANTASTIQUE - المطبوع سنة 1970 من أبرز الآثار النقدية المنظرة لموضوع العجائبية والمحددة أطره وضوابطه وجميع تفرعاته النظرية والتطبيقية" ¹ .

فالعجائبي بمعناه العام والبسيط هو اختراق لكل ما هو واقعي ومعقول وتهديم مستديم لبنية الواقع من أجل إعادة تشكيل وبناء واقع فني عناصره أصلها واقع معيش لكن تركيبها عجائبي.

« Le fantastique ne se situe pas en dehors ou contre ou malgré l'ordinaire quotidien : il est ce qui n'est pas et qui pourtant, advient, Breton : « ce qu'il y a d'admirable dans le fantastique , c'est qu'il Ya plus de fantastique : il n'y a que le réel ». cependant , et cela l'auteur des manifestes ne le pensait pas, et ce « fantastique » accompli ou ce « réel » évanoui – les deux faces du même processus – manquent à la saisie et ne sont le contenu d'aucun mot ni d'aucun signe » ²

إنّ العجائبي لا يقع خارج المؤلف اليومي ولا بالرغم منه ، إنه ليس ما هو مفهوم و لكنه يمكن ان يصبح شيئاً ما إذ يقول – برتون - : الشيء الرائع في العجائبي انه لا يوجد فيه اي عجائبي، إنه الواقع و فقط ، و بالنسبة لهذا الكاتب العجائبي و الواقع وجهان لشيء واحد لهما نفس المسار لأنّ العجائبي يكمل ما يخفيه الواقع.

كما يرى دونيس مولي - Denis mellier - أن العجائبي أو الفنتاستيكي :

«C'est ensuite la multiplicité des thèmes et des variations qui s'écarte des structures stéréotypées propres à l'épouvante gothique : les figures du miroir , de l'automate (l'homme au sable) , la frontière instable du rêve et de la réalité ou la fiction du doubles» ³

إن الحدود حسب رأي " دونيس مولي " بين الواقع والتخييلي العجائبي لا يمكن ضبطها بمقياس واحد لأن كل ما هو عجائبي هو وجه آخر للواقعي ، ومرآة عاكسة لكل ما هو مغاير فالحدود بينهما واهية فالواقع هو المتخيل والمتخيل هو الواقع.

¹ بهاء بنوار ، العجائبية في الرواية العربية المعاصرة مقارنة موضوعاتية تحليلية رسالة دكتوراه جامعة الحاج لخضر 2012- 2013 ص 48 .

² Charles Grivel, Fantastique fiction, 1^{er} édition Mai 1992, p 192.

³ Denis mellier , La littérature Fantastiques , édition de seul , P 25.

الفصل الثالث

ويرى الدكتور - شعيب حليفي - في كتابه - شعرية الرواية الفانتاسكية - أن " العمل العجائبي في العمل الروائي يتموضع بين ما هو عجائبي وغرائبي ، ويجعل القارئ كما يجعل الحدث ونهايته عاملين في تحديد فانتاستيكية العمل الروائي ، فإذا انتهت الرواية الى تفسير طبيعي فإنها تنتمي إلى الأدب الغرائبي (...) أما العجائبي فهو حدوث أحداث وبروز ظواهر غير طبيعية ، مثل تكلم الحيوانات ونوم أهل الكهف لزمن طويل والطيران في الماء أو المشي فوق الماء " ¹ .

وفي رأينا أن العجائبي لا يختلف عن الغرائبي فهو المتخيّل والرّوائي الذي يجنح بالعمل إلى الفنيّة والجمالية الأدبية و الفنيّة والغوص في أعماق الأحداث وإعادة إحيائها من جديد في وعي المتلقّي، فهو فضاء، واستراتيجية نباتية " استراتيجية الامساك بالمتوقع واللامتوقع في كتابة روائية ممتلئة " ² .

وبهذا المعنى يكون العجائبي أو التّخيلي امتدادا للأحداث التاريخية وكسرا للجمود والغوص فيها والوقوف على الأحداث، وصد الإيديولوجية الأحادية في كشف المستور في التّاريخ والمسكت عنه .

يقول - اندريه مالرو - : " الرواية الحديثة في نظري تعبير عن المأساوي الإنساني ، لا إيضاح لمعنى الفرد " ³ وهذا ما يتطابق به مع المضمون السردى في ثلاثية عبد الملك مرتاض - الملحمة - الطوفان - الخلاص - وهذا ما أفصحت عنه الثلاثية استنادا إلى التّخيل السردى فقد أبان صاحبها عن معاناة الجزائريين و بطولاتهم في مواجهة الحملات الشرسة التي قادتها أوروبا ضدّ الشعب الجزائري ، موظفا ظاهرة العجائبي في استنطاق التّاريخ و الكشف عن أغواره ، فأين يكمن هذا العجائبي أو المتخيل الروائي في تمفصلات الثلاثية ؟

إن ثلاثية الجزائر امتداد لحركة التّاريخ الجزائري الحديث ابتداء من الحملة الاسبانية على الجزائر وانتهاء بالثورة التحريرية الكبرى التي خاضها الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي.

فهي ثلاثية في عشق الوطن والتّعلق باللّغة والتّعبير عن الانتماء إلى الحيز الديني والاجتماعي والجغرافي للوطن ، فالجانب التّخيلي أو العجائبي فيها يتمثّل في الشخصية العجائبية لـ - الأم زينب - والذي أعطى للرواية جمالية فنية و إبداعية ، " وبينما هم كذلك في إحدى الليالي المظلمة وقد انطفأ القنديل التقليدي الذي كان يضيء الحلقة وما حولها لنفاذ طاقته ولهبّ نسيم جنوبي قوي حار وتلبّد السّماء بسحاب رعدى يوشك أن يمطر (...) وبينما

¹ شعيب حليفي ، شعرية الرواية الفانتاسيكية ، دار الحرف ، القيظرة ، المغرب ط 2 ، 2007 ، ص 50.

² د ، حسن نجمي ، شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية الناشر ، المركز الثقافي العربي ، ص 30.

³ فيصل دراج ، الرواية وتأويل التاريخ ، نظرية الرواية والرواية العربية ، المركز الثقافي العربي ، ص 14.

الفصل الثالث

هم يحدثون أنفسهم بالانفضاض من مجلسهم مخافة أن يهتن عليهم المطر ، وإذا حفيف خفيف غريب كأنه حفيف طائر ضخم يحوم بجناحيه على الفتیان المتحلّقين في الظلماء ، فيصابون عن ذلك بذعر شديد ، وإذا امرأة تبدوا من خلال وميض البرق بين فينة وأخرى ، مسنة ، أنيقة المظهر ، نقية اللباس ، تقتحم عليهم الحلقة ، ثم تسلّم ، ثم تستأذن الفتیان في أن تقعد معهم لتشاركهم سمورهم الثقافي الممتع ، إن أذنوا هم في ذلك لها ، وهي تقول لهم في لهجة كأنها مألوفة لديهم ولديها : السلام عليكم ، يا أولاد ، تارة أخرى ، أتأذنوا لي في أن أسامرکم ، فأسمع منكم ، كما تسمعون مني أيضا ؟! ¹

إن هذا القدوم المفاجئ للأم زينب عند - شجرة الدردارة - جعلهم يطلبون منها : " قدمي نفسك إلينا أيتها السيدة الوقور - إن شئت أن تبقي معنا ولو قليلا ، وإلا نهضنا فطردناك بالقوة من مجلسنا ، إن كنت انسية فإن كنت جنية التحدنا إلى شيخ الزاوية الحكيم ليذهبك عنا برقاه وتعاوذه التّاجعة التي ألف معالجتها في إخراج شرار الجنّ من المسكونين من الناس في مدينتنا².

و امتدّ الحوار بين الأم زينب وفتيان - شجرة الدردارة - حول ماهية هذه الشّخصية العجائبية الغرائبية ، و كيفية إقدامها على مجلس الفتیان " أنا ؟ تريدون معرفة اسمي ؟ اسمي زينب. وإن شئتم نادوني باسم الأم زينب . وستعرفون إن قبلتموني بينكم ، من سماني بذلك ، بعدا !... و أنا في الحقيقة من أهل المدينة الفاضلة، لا من أهل مدينتكم هذه التاريخية التي حبيت برجل عظيم كالأمير " ³.

وظلّ التّساؤل والتعجب يحوم على الفتية ومن معهم تحت الشجرة ومما زاد في الأمر حيرة أن - الأم زينب - لم تكن في حقيقة الأمر من أهل المدينة الفاضلة أصلا " أي أنها لم تكن كائنا عاديا من الإنس ، فمن الشيوخ من كان يعزوها إلى جيل من علماء الجن المؤمنين ، ومن أوائل قارئ القرءان وحفظته في القرون الخالية . ومنهم من كان يرى أنها لا هي من الإنس ولا هي من الجنّ ولا هي من الشياطين ولا هي من الملائكة ولكنّها كائن عجائبي أتى من تلقاء جبل قاف منذ القدم السّحيق بصحبة بدل من الأبدال فليس لهذا الكائن في الوجود نظير " ⁴.

وقد امتدّ خيال المؤلف إلى أبعد عن ذلك في وصف شخصية - الأم زينب - هذا الكائن العجائبي الذي رافق الرواية في أجزاءها الثلاث على أنّها امرأة عجائبية غرائبية كانت كثيرة التّحنّث والتّعبد .

¹ د. عبد المالك مرتاض، الملحمة، ص6.

² المصدر نفسه ، ص8.

³ المصدر نفسه ، ص8.

⁴ المصدر نفسه ، ص 11- 12 .

1-1- الأم زينب و البذل :

اتخذت - الأم زينب - بيتا لها معبدا بجوار شجرة مخضرة تحتها عين ماء جارية، " فزارها يوما بالمصادفة السعيدة أحد أبدال الإقليم الذي كانت تبجد فيه الأم زينب، فأكرمت وفادته، وأحسنّت ضيافته وصنعت له عشاءا من مرق العدس والخبز اليابس والملح والزيتون وذلك كان أشهر أطباقها، فأخبرها البذل أنه قاصد الى سياحة روحية في جبل قاف وسينزل عليها حين يعود - إن شاء الله - وسيدعو لها هناك بخير، ما كادت الأم زينب تسمع منه ذلك حتى أجهشت بالبكاء إجهاشا غريبا بدأت تنتحب في نشيج متواصل، وهي تقبل قدمي البذل الصالح، وتمطرهما دموعا غزارا (...) اندهش البذل (.....) وحار في أمرها وخاطبها في لهجة حافلة بالقلق والسّمود معا : يا سبحان الله ؟ ! ما دهاك أيتها المرأة الصالحة (...) ما هذه الدموع الغزار التي تمطرين بها قدمي ؟ هل أستطيع أن أساعدك أن كنت واقعة تحت غبن باهظ ثقيل ؟

كلا أيها البذل الكريم ؟ حاشا لله أن تكون قد أذنبت في حقّي وأنت من أولياء الله الصالحين ، ولكنني فقط سمعت بحبل قاف وعجائبه وبركاته وخيراته وأنواره ومقاماته ... "1

وتحت إصرار - الأم زينب - الحاكية لأخبار - المحروسة المحمية البيضاء - لفتيان - شجرة الدردارة - بأن ترافق البذل ليقوم بزيارة جبل قاف فطلبت منه أن يحملها معه إليه و يضعها تحت جناحه فتقام لها السّعادة العظيمة التي ظلت تحلم بها كلّ عمرها الطويل و لم تتحقق لها وبعد حوار ينتابه التّخيل يسمو على النوازع البشرية والغرائز الحيوانية فارتقى البذل " بعد أن استجار الله تعالى واستخاره في هذه الرحلة الروحانية أبشري بالسّعادة العظيمة ، أيتها المرأة الصالحة فهائي يا ولية ثيابك و اركبي كاهلي لعلي أستطيع احتمالك بصحبتي إن يسّر الله لنا التحليق في الفضاء السحيق "2.

أدخل البذل السّعادة إلى قلب وروح - الأم زينب - ويقال " إن هذا البذل هو الذي سمّاها زينب بعد أن كانت تسمى من قبل ذلك بأسماء كثيرة منها : بثينة و سعاد ، و هند ودعد ، و تماضر فقال لها البذل : إنّما تلك أسماء جاهلية لا تليق بامرأة عابدة تائبة سائحة مثلك و لا أرى أن يناديك الصّالحون في جبل قاف بأحد تلك الأسماء فهل لك في أسم زينب وهو اسم لإحدى نساء الرسول صلى الله عليه وسلم ، و أنت امرأة لست كأحد من النساء بل أنت من الصّالحين ؟ (...) فمنذ ذلك اليوم أثرت المرأة الصالحة أن لا تتسمّى بأيّ من تلك الأسماء الخمسة واختارت تسمية البذل الكريم عليها ، ثم انضاف إليها لقب الإجلال وهو - الأم - فأُمسّت تسمى في المدينة الفاضلة : " الأم زينب "3.

1 الملحة ، المصدر السابق ، ص 12-13.

2 المصدر نفسه ، ص 14.

3 المصدر نفسه ، ص 14.

احتلت الأم زينب في المتخيل السردى مكانة قوية ركن إليه المؤلف في عجائبية هذه الشخصية المحورية كراوية للأخبار -المحروسة المحمية البيضاء - في صراعها مع - الوحش الرهيب - القادم من - الجزيرة الغربية العامرة- ، فهي تمثل الفطرة السليمة والصفية لهذه الأمة، ومع وصولنا الى جبل قاف، جبل العجائب والبركات و الخيرات " التقت بكثير من الأولياء والصالحين هناك وجلست في مجلس السيد الخضر عليه السلام ، فاستمعت منه وتقرّبت إليه (...) وهناك كرعت الأم زينب من ماء عين الحياة العذب الزلال فهي خالدة تشهد كل الأحداث والخطوب إلى يوم الدين(...)فهي ليست بدعا من السيد الخضر نفسه الذي شرب من عين الحياة فخلد إلى أن يقتل الدجال حين يخرج آخر الزمان¹.

وذهبت صورة التخيل الروائي إلى أبعد من ذلك عندما قرن المؤلف عجائبية - الأم زينب - بالنبي - الخضر- عليه السلام وهو يصف ذلك الماء الذي كرعت منه " من أجل أن تطفئ ظمأها ، لأنها لا تظمأ أبدا ولكن ليذكرها بماء عين الحياة العجيب " ² الذي بعث فيها البقاء الأبدي والحياة الأبدية شاهدت وعاينت الأحداث التاريخية منذ الأزل السحيق ، رافقت التحولات التي حدثت في تاريخ - المحروسة المحمية البيضاء - وقيل " إن الأم زينب لم تسافر إلى جبل قاف قط ، ولكنها ألهمت إلى زيارة السيد الخضر عليه السلام حين كان يقيم سور مدينة الجدار، بعد أن كان أراد أن ينقض ، وهناك تعلّمت منه كل ما أرادت من العلوم والحكمة ومنها أستلام العصا)³.

ويتمثل التخيل الروائي في تتابع أحداث الرواية بالحديث عن جبل قاف، هذا الجبل الذي سيقى إليه الأم زينب بشغف وحب لا نظير لهما وهو لا يختلف في عجائبيته عن ما ورد من أوصاف حول رواية أخبار - المدينة الفاضلة -، وأحوال المحروسة المحمية البيضاء وقولهم " جبل قاف قليل ،لأنه واحد .، وكل قليل صغير ، فهو قليل وهو صغير .،وجبل قاف قليل لأنه واحد ، فهو ، إذن ، صغير " ⁴ هذا الجبل الذي وسعه المؤلف بالحديث على لسان - الأم زينب - يحمل الكثير الدهشة الحيرة التي توحى بعبقريّة الكاتب في صوغ عجائبيته والذي هو امتداد لمخيل الروائي لتبليغ مقصدية مخيالية ذاتية تتعلق بجمال و فتنة - المدينة الفاضلة - " لأن العلاقات المحتملة بين الراوي والأحداث والشخصيات من ناحية فعلية ، علاقات لا نهائية " ⁵ فهي علاقات تمتد في صلب التخيل الروائي وصولا إلى إنبات إيديولوجية الفضاء الروائي " ولذلك أكد لكم وأريد وأعيد الترداد ، يا أولاد أن مدينتكم الفاضلة إنما هي امتداد لجبل قاف بما فيه من جمال وجلال وحب وعدل و أمن وعظمة ورخاء ، والآن لما أصبحت هذه المواصفات المثالية البديعة التي لا توجد في غيرها من

¹ المصدر السابق ،ص 14.

² المصدر نفسه ،ص 19.

³ المصدر نفسه ،ص 19 .

⁴ المصدر نفسه، ص 27.

⁵ المتخيل السردى، عبد الله إبراهيم، السردية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2003، ص 118

مدائن الدنيا"¹ على هذا المنوال السردى التخيلي اعتمد المؤلف استراتيجية الفضاء المتخيل على امتداد الحقل الروائي للثلاثية ، فالأم زينب رواية أخبار المحروسة المحمية البيضاء ، مثلت التزاوج و التراكم بين التاريخي والتخيلي وما يحمل من تمازجات ذهنية وفكرية وثقافية "وربما أيضا لأن الفضاء بكل شساعته الدلالية و الاستعارية و الجمالية يضع أمام الباحث بقصديته وبوضوح غايته قدرا من الألم لابد وأن يرهق المسارات المطمئنة " ².

1-2- الوحش الرّهب وحسنة المدينة .

إنّ امتداد الجانب التخيلي لدى المؤلف ومحاولته الكشف عن الأحداث التي رافقت الغزو الإسباني لأرض الجزائر رسم صورة له لطالما اجتنبها المؤرخون و هي الصورة التي مثلها و استجلاها في - الوحش الرّهب - القادم من - الجزيرة الغربية العامرة - وقيل " إن أصله هو أن لا أصل له " ³ فالمؤلف اعتمد الأصل المجهول للوحش لأهداف كثيرة منها إثارة العجائبية ضمن السرد و فسح المجال أمام المتلقي لتأويل هذه العجائبية ، و في السياق نفسه يتدخل المؤلف في توجيه العجائبية وفق المعطى الإيديولوجي للشعب الجزائري فهو " من أبوين مجهولين عثر عليه أحد الصيادين الغجريين في الغابة في يوم ممطر (...) فكان الوحش يعيش مع الصياد في كوخه ، ولم يلبث أن تمرّس على الصيد (...) فصار يساعد الصياد في اقتناص الحيوانات بل فاقه في ذلك فوقا عظيما ، (...) فلما كان ذات يوم يصطحب الصياد في مجاهل الغابة أخطأ الوحش الرّهب في أمر فغضب عليه الصياد (...) وهدهد بالضرب (...) فحقد الوحش الرّهب على الصياد (....) فانتظر (...) إلى أن أمكنته الفرصة يوما فطعن الصياد العجوز بحديدة بدائية كان يصطاد بها فقتله ، ثم تركه نهشا لسباع الغابة فلم يوار جثته " ⁴ هذه الصورة العجائبية التي رسمها المؤلف للوحش الرّهب عنوان لخطرسة الغزو الإسباني الذي أراد تركيع الجزائر ، هي صورة من واقع التخيل منبعثاته الخلفية الفكرية و الأخلاقية للشعب الجزائري الذي قابل خطرسة الوحش الرّهب بالاحتقار و الانتقاص من مكانته التي يظنها لنفسه.

في هذا السياق أسهب المؤلف في رسم أصل وملاح هذا الوحش فجعله "ابن زنا وضعته أمه وهي متخفية عن الأنظار في الغابة ، ثم تركته هناك لقدره ، فمرت به ظبية ، بالقدر المقدر ، وحنّت عليه ، وبدأت ترضعه إلى أن بدأ يحبوا ، ثم يمشى على رجليه (....) قبل أن يتعلم صيد الأرانب والطيور والغزلان (...) فكان يلتهمها نهية غير منضجة كما يرى السباع تنهش لحوم بعضها بعض (...) فظل يصدر بعض الأصوات العشوائية التي تشبه أصوات الحيوانات التي كان يعايشها (...) كان يتمنى لو أنه يعرف كيف حملته أمه وكيف

¹ الملحة ، المصدر السابق ، ص 31

² حسن نجمي ، شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية الناشر ، المركز الثقافي العربي ، ص 35 .

³ الملحة ، المصدر السابق ، ص 93.

⁴ المصدر نفسه ، ص 93-94

ألقته في هذه الغابة (...) ولو كان للنّاس أمهات لكان الصّياد الذي كان يصطاد الأرانب والحجل ، والقنافذ والغزلان ، ولم يكن يحدث الوحش عن أمه قط بل لم يكن الوحش والصياد يتحدثان إلا بالإشارة العجلى (...) كان الوحش الرهيب والصياد يتشبهان في نظام حياتهما بحيوانات الغابة (...) فكانت الأمومة والأبوة تنتهيان بمجرد مضي زمن معين على حياتهما

" 1

فالتّخيل الذي اعتمده الكاتب في المتن الحكائي عن الوحش الرهيب يصدر عن ثقافة متجذّرة وإمام واسع بالحقائق التاريخية والرسمية والشّفوية الجمعية في الخيال الجمعي ...

فقد ذهب المؤلف بمخيله الرّوائي إلى أبعد من ذلك في استكمال صورة الوحش الرّهيب ، و هو ما أورده على لسان الأم زينب حول أصل وفصل الوحش الرهيب وهذا ما أكّده - علي حرب- في هذه المسألة التي تجمع بين التّخيلي و التاريخي في المتن الحكائي الذي " يرفض الواقع ويقاومه بخلق واقع آخر مواز له أو بديل عنه بمثله "2 وقد بدى جليا على لسان الأم زينب "بل قيل : لا إن الوحش أتى أصلا ، من كوكب بعيد من المنظومة الشمسية (...) له بضعة رؤوس (...) مشوّه الخلق (...) ولذلك كان أطلق عليه بعض شيوخ المدينة الفاضلة الغول (...) وقيل في أصحّ الرّوايات وأقربها إلى التصديق : بل إنه ولد في تلك الغابة المتوحشة حقا ، ولكن من أبوين معروفين ، ارتبطا ارتباط معاشرة جنسية لا ارتبطا روحيا شرعيا ، فقد كانت أمه فتاة منحرفة (...) تهوى الرّجال (...) بل كانت لا تزال تتهاكك عليهم (...) فوقعت يوما تحت إغراء فتى عات من العتاه الخلعاء من أهل الغجر ، فأعجب بها (...) وطلب إلى أبويها أن يزواجه لكنهما رفضا وذلك لفقر الغجري وعُدمه وخمول نسبه (...) غير أن الفتاة بادلت الفتى (...) غراما بغرام (...) فقد كان الفتى شغفها حبا (...) ففرت مع الغجري العاتي من بيت والدها ليعيشا معا في وجه من وجوه الغابة (...) هنالك واقعها الغجري دون عقد زواج ولا شهود فأولدها هذا الكائن الغريب الذي تربى مع أبويه في الغابة ، فهو ابن زنا حتما " 3

ولعل الحادثة التي استهوت الوحش الرهيب لينتقل من حيوانيته إلى آدميته في استنفاد غرائز لا غير ، " أنه كوّن عصابة من الخلعاء والفتاك للسطو على أهل القرية بالسبي لفتياتها "4 في تلك الليلة الليلية أغرى الخليع ، الوحش الرهيب بفتاة كانت في غاية في الحسن والجمال وهو يخاطبه : جرب المضاجعة مع هذه الفتاة الجميلة يا سيدي ، الوحش ، وسترى ، أو ليس من سمع كمن رأى (...) أنه شتان ما بين إناث البشر الجميلات (...) وإناث الحيوانات القدرات الذافرات (...) قبل الوحش الرهيب هدية صاحبه (...) ثم عمد

1 الملحة ، المصدر السابق ، ص 94-95-96

2 د علي حرب ، نهد النص ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ط2 ، 1995 ، ص 39 .

3 الملحة ، المصدر نفسه ، ص 95-96 .

4 المصدر نفسه ، ص 99.

الفصل الثالث

الاختلاء بالفتاة السبية الشقية في كوخ فاغتصبها بشراسة منقطعة النظر فقد رضعها حتى أدامها ، وحتى كاد يكسر عظامها، قيل: كان للفتاة صراخ شديد سمعه كل من في قرية الأكواخ بالغابة فنّبّه أبنائها وصراخها الحيوانات حتى استنفرت " 1

أمّا ما كان من أمر الحسناء فهو الآخر يدخل في فضاء التخيلي العجائبي الذي أعطى للتاريخ إضافات كثيرة غابت عن المؤرخين في كتاباتهم ، فقد قادت عنجهية الوحش الرّهيب بكل فخر واعتزاز إلى السطو على - المدينة الفاضلة - وغايته في ذلك الاستئثار بالحسناء الجميلة ، التي حدّثه عنها أحد الكونتات 2 المقرب منه " لقد كان ظاهر حملته هو اخراس أصوات المؤذنين في المدينة الفاضلة وما في المدينة الفاضلة وما والاها من المدن الساحلية للمحروسة المحمية البيضاء وباطنها أنه يستأثر بحسناء المدينة فيتباهى بذلك بين الملوك قائلا : أنّي لأبو عذر هذه الحسناء لم يطمئنها من قبلي إنس ولا جان ، فأنا الذي ذلّلتها بعد شمس ، وأنا الذي طوعها بعد إباء ، حسناء الكون " 3.

أغري الوحش الرهيب بجمال الحسناء فاندفع إلى غزو المدينة الفاضلة مجتّدا نفسه و من معه ، حين " تغلب على القسم الشمالي للمدينة[بدأ] يخرج كل ليلة إلى الشاطئ ، ليشتم نسيم البحر الليلي ، وليرصد حسناء المدينة الفاضلة بعد أن سمع أنّها تخرج كل ليلة إلى البحر مع الأسحار لتستحمّ في مياهه وهي عارية ، كان يأتي ذلك كل ليلة لعله أن يصادفها فيسببها فيسارع إلى اغتصابها " 4.

ظلّ الوحش الرّهيب على حلمه، وتدبيره ، ويسعى في خلعائه وبث عيونه في كل مكان عله يستأثر بالحسناء الجميلة ويزف إليه الخبر الجميل والسّعيد وانتظر زمنا طويلا دون جدوى وفشل الجميع في سبي حسناء المدينة الفاضلة رغم أنه " وحش كل الأقطار و الأعصار " 5.

اشتد غضب الوحش الرهيب بعد فشل خلعائه في العثور على الحسناء فغضب غضبا شديدا وثارت حيوانيته المتأصلة فيه والتي شبّ عليها في الجزيرة الغربية العامرة ، فزادت معها فظائعه وشنائعه " لم يرضيه أن يقتل ألفا أو ألفين ، كان يريد أن يمحق أهالي المحروسة المحمية البيضاء كلهم أجمعين أكعتين ، أتبعين ، أبصعين ؟! بدأ بالمدينة الفاضلة، ولكنه مد عينيه إلى مدينة الغنائم فمدرسة العلم ، فمدينة المرجان ، فمدينة العناب ، وهنا لا يغمض عينيه على الدواخل ، وخصوصا مدينة الجدار ، ومدينة أم العساكر الخضراء ...كأنه كان يريد أن يمحق المدينة الفاضلة بأهلها " 6 .

1 الملحمة ، المصدر السابق ، ص 102-103.

2 المصدر نفسه ، ص 111.

3 المصدر نفسه ، ص 117 .

4 المصدر نفسه ، ص 127-128.

5 المصدر نفسه ، ص 129.

6 المصدر نفسه ، ص 131، 132.

إن البورتري - portrait - الذي يقدمه المؤلف لشخصية الوحش الرّهيب أثناء حديثه عن نفسه لهو في حقيقة الأمر عجيب غريب استوحاه المؤلف من الأفعال والأخلاق التي مارسها في التاريخ بطابع سردي تخيلي

فهو بهيمة في صورة - الوحش الرهيب - دفعته بهيميته إلى الإقدام على أفعع الجرائم المكتوب عنها تاريخيا ، و هو ما ورد على لسان حاكية أخبار - المحروسة المحمية البيضاء - : " لقد رأيت الوحش الرهيب في حالات خاصة يرتكب جرائم مريعة ... فقد كان أحيانا يطالب طباخه بأن يحضر له طبقا كان مفضلا لديه من لحم خاص (...) من نهود العذارى بعد اغتصابهن"¹.

وبعد مقاومة وقتال ضار استسلمت المدينة الفاضلة للوحش الرهيب وسببت الحسنة وجاءت اللحظة الحاسمة ، كان اللقاء بين الأدمية الإنسانية والحيوانية البهيمية بين نقيضين لا يلتقيان أبدا " لعل الحسنة تظاهرت بالاستسلام للوحش الرهيب من أجل أن تحاول تربيته تربية إنسانية ، من أجل أن تمدنه "².

و أمام هذا الطرح الذي عمد إليه المؤلف بين حقيقة الوحش الرهيب و حسنة المدينة في علاقة تراكب بين التاريخي و التخيلي نلاحظ أنه و بفعل العجائية قلب الأحداث التاريخية ذات الطابع الرسمي فكشف الغطاء عن حقيقة الاستعمار الموصوفة بالغدر و الحقد و الخبث ، و التي يدعي خلافها في سببه للحسنة ، فقد خالف المؤلف بذلك و من خلال السرد التخيل للرواية ادعاءات الاستعمار في أنه جاء لينشر قيم التمدن و التحضر بين مستعمره بينما حقيقة قضى عليها بأفعاله الشنيعة و وجد من يعلمه هاته المعاني في الأوساط التي سعى إلى استعمارها ، و هو المنطق الذي اعتمده المؤلف في قلب زيف الحقائق كواقع تاريخي رسمي إلى حقيقة كواقع عجائبي سردي يتماهى و الخلفية المخزونة في الذاكرة الجمعية للتاريخ الشفوي أو المسكت عنه

2- مخيال الحوار التمدني والبهيمي .

للقوف على لحظة اللقاء وأبعادها الفكرية بين الوحش الرهيب القادم من - الجزيرة الغربية العامرة - ، والجميلة الحسنة - حسنة المدينة الفاضلة - ، والرموز التي تحملها هذه اللحظة التاريخية - للقوف على كل ذلك - علينا أن نقرأ ذلك الحوار الدرامي بين الحسنة والوحش الرهيب .

" شرعت الأم زينب في حديثها للفتيان المتحلّقين تحت شجرة الدردارة يستمعون إليها بشغف وحب وولهة وولع ،إني لقوي ، وإني للوحش الرهيب و المرأة أعظم ما أحب

¹ الملحة ،المصدر السابق ، ص 142 .

² المصدر نفسه ، ص 143 .

الفصل الثالث

إلى قلبها ونفسها وجسمها معا ، أن يقع لها رجل قوي مثلي تسكن إليه ، فيضمها بقوته العاتية فتستسلم بين ذراعيه المفتولين كعصفور صغير لا حول له ولا قوة فتحس هناك بالأمن والطمأنينة وتستسلم للإسترخاء (...) ماذا أقول؟ بل أنا الوحش المتناهي الوحشية بحيث يمكن أن أحو الشجر لحوا بأظفري هذه الحداد (...) أنا الوحش الرهيب الوحيد الذي يمسك بقبضة يديه الكبيرتين اللتين تشبهان مقمعتي الحديد فتتكأثر الأيدي الأخرى العاضدة ، بحسب ما تقتضيه الحاجة ، فيمسي الجسم الممسك به أسيرا بين أيدي المتعددة لا يتحرك ، لكنه يستسلم ساكنا ويدعن مشلولاً (...) إني بفضل قوتي الهائلة التي وهبتها الطبيعة ، لأنا أقوى الرجال في الكون جسما (...) ولأنت أعظم نساء الكون جمالا ورقة ولطفا ، فأنا أعظم رجال الكون قوة وجبروتا ، أفلا يكون هذا التقابل العجيب بين أعظم قوة وأعظم جمال بما يفضي إلى تزواج جسدي رائع لم يشهد التاريخ له مثيلا ؟

قاطعت الحسناء ، يا أولاد الوحش الرهيب كالمنتفضة عليه المهتاجة غضبا منه ، وهي تقول في صوت هادئ متزن عميق : حسبك ! لقد ذهبت بعيدا ! إلى بعيد جدا ... زاد البعد منك ، وأنت أبعد مني ، أكثر مما تظن ، كلانا بعيد عن الآخر ولا رجاء في التقارب بيننا ، كذلك أرى وما أرى إلا صدقا وحقا .

كيف ذلك أيتها الحسناء المغرورة ؟

كيف ذلك ؟ أنا متمدنة وأنت بهيمي ، أنا متدينة وأنت ليس لك دين (...) أنا متعلمة وأنت جاهل (...) أنا طاهرة وأنت نجس أنتم لا تغتسلون من الجنابة ، ولا تتوضؤون خمس مرات في اليوم ، هذا خالص لنا وحدنا ، أنتم لا ؟ أنا الآن متوضئة طاهرة؟ لقد توضأت بمياه البحر الباردة ، فأنا متأهبة اللحظة للقاء الله ، كذلك عقيدتنا وثقافتنا (.....) فلا أنتم تعتقدون ما نعتقد ، ولا نحن نعتقد ما تعتقدون ، أنا شرقية وأنت من غربي الغابات المظلمة العامرة ، أنا من مدينة الفارابي الفاضلة ، وأنت من غابة الوحش المفترسة ، أنا أحمل أثقالا من أمجاد التاريخ ، وأنت جئت لتكتب اليوم ، بأخرة من الزمن تاريخا بهيميا بدماء الأبرياء ، فأنت اللاتاريخ ؟ أنا الوجود النوراني وأنت العدم الظلامي أنا العناية اللطيفة ، وأنت اللعنة الخبيثة ، أنا الذاكرة وأنت النسيان ، أنا السلام وأنت الحرب ، أنا المحبة وأنت الكراهية ، أنا التسامح وأنت العنصرية ، أنا الحب وأنت الحقد ، أنا العدل وأنت الجور ، أنا النور وأنت الظلام ، أنا أو من بالقيم وأنت ترفضها رفضا فأنا وأنت ، كما ترى مختلفان اختلافا بعيدا ¹.

فمن خلال الحوار الذي دار بين الوحش الرهيب وحسناء المدينة تظهر عبقرية المؤلف في كشف عورة التاريخ الخفي الذي دفع بالوحش الرهيب إلى محاولة سبي الحسناء الجميلة والاعتداء عليها بالطريقة الهمجية التي تلقنها في الجزيرة الغربية العامرة ، فالحسناء تمثل الحضارة والفكر ، والعلم ، والوحش الرهيب يمثل الخراب ، والجهل والاعتداء والسطو

¹ الملحمة ، المصدر السابق ، ص 146، 147، 148

الفصل الثالث

والقتل بسلوكه الهمجي الذي اتّبعه في احتلاله المدينة الفاضلة و- أم المدائن - فيما بعد و كذا - أمّ العساكر- و- مشتى الغنائم - و - مدينة الجدار - و مدينة العناب - و - المدينة المعلقة بأسباب السماء - و - المدينة السمراء - و كلّ أرجاء - المحروسة المحمية البيضاء - .

ويمكن تمثّل هذا المخيال الحوارى الذي كشف عن استعمال التّاريخى فى الرّواية والتضاد والتقابل بين المفاهيم الحياتية وما يحمله الصواب من أنماط فى التفكير، وأهداف ومرامي مختلفة، تقابلها عصبية وغرائز، يمكن تمثله كآلاتى من خلال هذا التضاد:

الوحش الرّهب	↔	الحساء الجميلة
الغرب المظلم	↔	الشّرق السّاحر
الأجنى الغربى	↔	المحلى المألوف
الحيوانية والبهيمية	↔	الإنسانية والمدنية
الفقر	↔	الغنى
النّجاسة	↔	الطّهارة
المادّة	↔	الروح
العلم	↔	الجهل

فكيف تلتقى هذه المتناقضات فى أرض واحدة ؟ وكيف يلتحم جسدان ويلتقيان فى لحظة واحدة ؟ وكيف يسيران إلى هدف واحد وغاية موحدة ؟

أو بعبارة أخرى كيف يلتقى الوحش الرهب بحساء المدينة ويقترب منها حتى كاد يلمسها ... صفعته الحساء صفة عظيمة فترجّح لها رأسه الثلاثى الرؤوس، وسقط على الأرض مغشياً عليه لما أفاق من إغماءاته التى سبّبتها له صفة الحساء لم تجد لها أثراً صرخ ونادى باحثاً عن الحساء التى كانت حلماً فى مخيلته و شعوره الباطنى .

هذه العجائبية التى وظّفها المؤلّف بالحوار كعنصر من عناصر السرد التخيلى بين الوحش الرهب وحساء المدينة تفضى بنا إلى تصور علاقة منبعثة من المخيالية الروائية للتلقي إلى " فضاء دلالي " ¹ و هنا وصل بنا المؤلّف إلى مقصدية إبداعية تمثّلت فى تثبيت الحقائق التاريخية الدقيقة التى لا يقولها التّاريخ إما تخرّجاً أو تعنّناً.

¹ د. حميد الحميداني ، بنية النص السردى ، المركز الثقافى العربى، ص 64.

1-2 - الأمير والموج والصخرة العجرودية .

بعد الفضاءات الدلالية التي أوصلتنا إلى استكناه دور العجائبية في كشف الواقع التاريخي بين - الوحش الرهيب - و - حسناء المدينة - ها نحن الآن أمام صورة أخرى من صور التخيل السردى و المتمثلة في جهاد و مقاومة الأمير عبد القادر للاستعمار الفرنسي ، فقد استحضر الأمير و هو في لحظة من لحظات الانعزال - استحضر- قول الشافعي قائلا : " لله درك يا شافعي " كأنك حين أنشأت هذين البيتين لم تكن تقصد إلا إياي وما آل إليه أمري ¹

كيف الوصول إلى سعاد ودونها قُل الجبال، ودونهن حتوف؟

الرجل حافية، ومالي مركب والكف صفر والطريق مخوف²

إن مخيال المؤلف الذي اعتمد الحوادث التاريخية في معارك الأمير عبد القادر- اعتمد - التراث وجنح به نحو التخيل الروائي وهو يرسم صورة أنيقة وجميلة و لوحة فنية للأمير عبد القادر المنهزم المكسور أمام جبروت الكائن الغريب العنيد.

وباعتبار أن الرواية جنس أدبي محايت للحياة والقول بمحايتة الرواية للحياة أو الواقع "يفيد أن الرواية وهي تُنتج لا تُنتج إلا بتراكب التفكير الجمالي بالحياتي "³

وبناء على ما سبق فإن رواية - الطوفان - وهي تعتمد المحايتة للحياة أو التراث فهي تنتج بتراكب عناصر متنوعة تطبعها بالجمالية والتشويق ، فالأمير وهو يتذكر الشافعي في لحظة من لحظات الضياع والانكسار أمام الطوفان الجارف تبني المحايتة بينهما لحظة لقاء وفراق ، ضياع وموت ، حتف وخوف من المصير المجهول .

و لا تغيب عجائبية -الأم زينب - كفضاء دلالي ترتكز عليه الثلاثية في السرد التخيلي ، فقد واصلت حكايتها لفتيان مدينة - أم العساكر - تحت - شجرة الدردارة : " وكانت الأمواج التي لا تزال تتصاحب كأنما كانت تخاطب الأمير بلسان الحال (...) أيها الأمير الشجاع ! ما يحزنك وقد أبلت في المقاومة بلاء عظيما ! إنما يحزن من قصر في مقاومة الكائن الغريب العنيد (...) أيها الأمير الشجاع ! إن نهاية الأبطال كثيرا ما يكون مصيرها محزنا ، هكذا نحن معشر الأمواج لا لغة لنا بالقياس إلى من لا يفهمنا فيحسب حركتنا عبثا ويرى اصطخابنا عشوائيا ويخال هديرنا لغوا ولكن من أوتي علما من الكتاب يدرك أنا نتحدث لغتنا الخالصة لنا بلسان حالنا فكما أن صرير الباب وخرير الماء ونقيق

¹ الطوفان ، المصدر السابق، ص 225 .

² ديوان الإمام الشافعي مكتبة ابن سينا للنشر و التوزيع ، القاهرة مصر ،، ص 101 .

³ د،فايزة يخلف ، مناهج التحليل السيميائي ، دار الخلدونية للنشر والتوزيع ، ط 2012 ، ص 112

الفصل الثالث

الضفادع وهب الرياح هي أصوات دالّة تسبح بحمد الله تعالى (....) نحن معشر الأمواج نصطخب ونتكسر فإنّما نسبح نحن أيضا بحمد الله تعالى تسبيحا "1.

إنّ ما يمكن استنتاجه من هذا الحوار التّخييلي بين الأمير والأمواج لحظة من لحظات الوعي بحقيقة الجانب الخفي في شخصية الأمير التي تمثّل الذات الجزائرية والهوية الوطنية والمقاومة المستمرة عبر التّاريخ إذ يذهب المؤلف بالتّخييل الروائي إلى أبعد من ذلك في القول: " فعلا ! ويبدوا أن الأمير حيث طلب الاختلاء إلى الصخرة العجرودية الأزلية ثم توضاً من ماء البحر وصلى العصر (...) ثم جلس بجانب الصخرة تأمل الأفق الغربي المضرج بحمرة شمس الأصيل الذي كان يوشك أن يودع نهارا خريفيا صاحيا مشمسا " 2 .

يقول – ريجيس دوبري- REGISE DOBRAY - " إن الصورة علامة تمثل خاصية كونها قابلة للتأويل وهي تنفتح على جميع الأعين التي تنظر فيها وإليها إذ تمنحنا إمكانية الحديث عنها وتقديم تأويلات متعددة ومختلفة بخصوصها "3

فصورة الأمير صورة مخيالية تحمل الكثير من التأويل والدلالة المغايرة السؤال هنا : لماذا إذا قصد الأمير البحر ؟ ولم خاطب الأمواج وخاطبته؟ وما بال الصخرة؟ وما علّة الزمن في تلك اللحظة حيث كان الخريف والمساء؟ و لم الشافعي ؟

كلّ هذه الأسئلة تثير فينا الاندهاش أمام مصير الأمير العظيم وهو ينتهي شأنه عند هذه الصورة فالخريف " عنوان على الهرم والشيخوخة ورمز الإنتهاء " 4 والمساء هو نهاية اليوم وانطفاء نوره وهذا ما يتوافق مع الحالة التي آل إليها الأمير وهو يخاطب البحر والموج ويتساءل عن سره العظيم ! وقد استحضر في هذه اللحظة الشّافعي ، والغزالي ، وابن العربي ، وسيبويه إنها اللحظة العظيمة التي توقف فيها الزمن، لحظة الاستحضار والانكسار، لحظة الضّعف بعد القوة والتمكن في الأرض .

كما يعبر هذا التلاقي بين حالة الأمير و لحظة الزمن الخريفي و الشخصيات المذكورة عن حالة ذات وجهين : الوجه الأول يتمثل في شعور الأمير بالخيبة و الانكسار و هي صورة ذاتية نفسية مظلمة ، و الوجه الثاني حضاري يمتد إلى الماضي خلافا لمنطق الزّمن فتنبعث صورة لدى المتلقي مشرقة مفعمة بالعزّ و الفخر و الارتياح .

ثم ما علّة هذه الصّخرة التي جلس عليها الأمير ؟ " إنها الصخرة المباركة العجيبة " 5 لقد ساقه القدر إليها قدرا محتما " ولعل موسى وقتاه حين ركبا السفينة مغربين للبحث عن

1 الطوفان ، المصدر السابق ، ص 226 .

2 المصدر نفسه ، ص 230.

3 دفايزة يخلف ، مناهج التحليل السيميائي، دار الخلدونية ط 2013 ، ص 131 .

4 الطوفان، المصدر السابق ، ص 230.

5 المصدر نفسه ، ص 238.

الفصل الثالث

السيد الخضر عند الصخرة (...) فمن الممكن أنهما أرسيا سفينتهما عند صخرة عجروود وهي الصخرة التي كان يبحثان عنها (...) وخصوصا أن موسى بعد اللقاء بالخضر قصدا تلمسان ، فوجدا جدار يريد أن ينقض فبدأ الخضر يقيمه فـ " علة هذا الجدار لم تكن محل صدفة ، الأمر الذي دفع بالأحداث إلى الوضع الذي آل إليه الأمير العظيم ، فلم يستقر به المقام إلا في مكان عظيم يليق به على هذه الصخرة المباركة رغم حالة الانكسار والانهازام التي أصابت دولته.

2-2- المتخيل السردى :

" لا شك أن الأنساق السردية وأشكالها تختلف من روائي إلى آخر وقد تختلف من عمل إلى آخر بسبب تطور التجربة وتغير قوانين الكتابة والإبداع من فترة زمنية إلى أخرى " ¹.

ودون الخوض في ماهية وطبيعة السرد و مستوياته الموضوعية والذاتية ، وكيف يكون الروائي " مطلعاً على كل شيء حتى الأفكار السرية للأبطال " ² وجب علينا أن نخوض في مسألة أخرى تربط السردى بالتخيلى ، وكيف يستطيع المؤلف أن يحرك المتن الحكائي وفق آليات تجعل من العمل الروائى مدعاة للتأويل ؟ وكشف عوارض الحوادث التاريخية وأفعال صانعيها؟

لقد أشرنا سابقاً أن مؤلف ثلاثية الجزائر استطاع بتفعيل التخيل العجائبي واعتماد المصنّفات التاريخية والحكايات المتوارثة في الذاكرة الجمعية – استطاع – أن يهدم الحواجز والموانع الايديولوجية ويعبر عن التاريخ باستعمال التخيل للكشف عن الحقائق التي غيّبت عن طريق اعتماد التاريخ الرسمي و تغيب التاريخ الشفوي .

إنّ توظيف المنتج الحكائي الصامت في الذاكرة الجمعية والغوص في أعماق الشخصيات وبالاستناد إلى الوثائق التاريخية الرسمية توصل الكاتب إلى إبراز ماهية التخيلي وجعله مطية إلى المعرفة التاريخية .

فالتخيلى في الثلاثية أوصلنا إلى معرفة الحقائق التي غابت في التاريخ وأهمها : عامل الجوسسة الذي كان سببا خفيا في احتلال الجزائر كما أنّ توظيف العامل العجائبي ومنه " الأم زينب " حاكية أخبار -المحروسة المحمية البيضاء - وما حلّ بأهلها رجالا ونساء من قتل وسرقة واغتصاب " في اليوم الثالث من احتلال أم المدائن الكبرى مرّت فرقة من المرتزقة بحمام القصبة ، وقد كانوا يقضون بياض نهارهم بحثاً عن السيدات

¹ د آمنة بلعلي . المرجع السابق ، ص 61 .

² ينظر ، نظرية المنهج الشكلي، نصوص الشكلايين الروس، تر ، إبراهيم خصيب ، مؤسسة الأبحاث العربية ط1، 1982، ص 189

لينتزعن قلوبهن وأسورتهن نزعا إن أطعن ، فإن عصين فيقطع أعضائهن (...) فدلف إلى داخله [الحمام] أوقحهم وأكثرهم توحشا وما هو إلا أن يقص أثره الآخرون من صحبه قصصا ، ثم يعمدون إلى ملابس النساء العاريات وهنّ يستحمن فعمدوا إلى كل ما كان في تلك الملابس من حلي عظيمة فسرّقوها عيانا ، والنساء يخفين عوراتهن بأكفهن وهن يصرخن صراخا عظيما ، وخرج المرتزقة راكضين بأثقال الحلي ميممين سوق اليهود لبيعها بخسا ¹.

هكذا سكت التاريخ عن هذا ورصدته الرواية ، و هنا يختلف المؤلف عن سابقه في فترة انحصار الرواية الجزائرية في الإيديولوجية التاريخية وعدم قدرتها على استيعاب التاريخ المرجعي لعملية تاريخية حقيقية كما يوحي بتطور تجربة الكتابة في الرواية التاريخية الجزائرية .

كما غاب عن التاريخ وأهله الكثير من الحقائق التي أصبحت وصمة عار في جبين الكائن الغريب العنيد ومنها قصة الأم حليلة مع ابنها وابنتها علما أن هذه المرأة كانت من عليّة أهالي - المحروسة البيضاء - عندما قتل الكائن الغريب العنيد أبوها - حمدان - وزوجها أهدى مزرعتها إلى أحد " الأراذل الذي كان جاء من أقاصي أوروبا يتضور جوعا"² ظلت هذه المسكينة تكابد ظروف العيش القاسية "وتكدح أجيرة عند المعمر (...) تنظّف معطن الخنازير وحنانيصها"³ وانتهى بها الأمر إلى المرض العضال والسعال ففضى عليها وعلى ولديها وأمها "وقد استحضرت الأم حليلة المسكينة - وهي تحتضر - أطرافا من حياتها الماضية (...) ولا تدري كيف انتهى بها شريط الحياة الماضية إلى ليلة زفافها (...) وهي عروس ترتدي لبعلها الوسيم إبراهيم الطويل أجمل الملابس وأفخرها "⁴

هذا ما ذكرته الرواية وأهمله التاريخ ، ومن ذلك قصة الصبي أحمد الذي قصد مدينة سطيف للعمل والكّد وتوفير قوت العيش لإخوته بعدما جُدد أبوه " ليلتحق بالخدمة العسكرية في صفوف مرتزقة الكائن الغريب العنيد في الجبال البيضاء "⁵ هذا الصبي اليافع الذي أظهر وطنية خالصة إذ طلب منه المتظاهرون في أحداث الثامن من شهر ماي 1945 أن يحمل الراية الوطنية ويشهرها في وجه الكائن الغريب العنيد بعد أن ألح عليه الجميع بذلك ، ليتسلق العمود الكهربائي " وهو يحمل العلم الوطني العظيم "⁶ قد فعلها أحمد وتسلق " ولم

¹ الطوفان ، المصدر السابق ، ص 30

² المصدر نفسه ، ص 323 .

³ المصدر نفسه ، ص 324 .

⁴ المصدر نفسه ، ص 328 .

⁵ الطوفان ، المصدر السابق ، ص 344 .

⁶ المصدر نفسه ، ص 348 .

يتردد هذا الصبي في النهوض بهذا الشرف " ¹ لقد دفعته الوطنية والشعارات الحماسية إلى الأعلى وهو يحمل رمز الوطن في قلبه وبين يديه " وفي لحظة واحدة قرّر الصّبي أحمد الحمال اليتيم أن يكتب التاريخ وإن كان يجهله جهلا ! ... أو أن يكتب عنه التاريخ ليصبح بطلا وطنيا عظيما بدلا أن يحمل الحقائق الثقيلة على ظهره يوميا (...). ذكر وصية أبيه وهو يودعه منذ زهاء 10 أشهر : كن يا أحمد رجلا (...). وفي لحظة من التاريخ عظيمة عمد الصبي أحمد (...) إلى إنشابه الراية في ثغرة من الخشبة فرفرفت وترهيات منتشرة متمرمة بفعل هبوب النسيم عليها مختالة في السماء (...) جاء ذلك أحمد الصبي الحمال اليتيم قبل أن يصيبه شيء صادم محرق يخترق أحشاءه اختراقا لقد أطلق النار عليه محافظ شرطة الكائن الغريب العنيد في سطيف فأرداه قتيلا ، لقد أقدم هذا الكائن على قتل صبي لا يتجاوز عمره الثانية عشر ربيعا " ².

إن التّخييل الرّوائي السّردى أصدر حكمه على التاريخ وأقر بقصره وتناسيه ونسيانه لحلقات كثيرة منه تكشف الحقيقة وتدين الآخر.

2-3- المحكمة الأخلاقية والتّخييل السردى :

امتد التّخييل السردى عبر زوايا الثلاثية بأجزائها – الملحمة – الطوفان – الخلاص – محاولة من المؤلف أن يراكم بين التاريخ والتّخييل ليميط الغطاء عن الايديولوجية وما أفرزته الحركة الوطنية في صراعها مع الاستعمار الفرنسى خاصة ما نتج عن ذلك الصّراع من آلام وآمال توجت بالاستقلال.

" كان الكائن الغريب العنيد الذي جاء من وراء البحر اللّجى البعيد إذا ، فكر وقدر ، وأزمع بارتكاب الجريمة النّكراء مع سبق الإصرار فكانت حادثة المروحة مجرد تكأة اتكأ عليها لغزو المحروسة المحمية البيضاء والتّبئك في أراضيها الخصبة المعطاء ³.

" انتفض يعقوب الباريسى انتفاضا شديدا وقال بصوت غامر بالحزن والقلق والغضب معا: حذار أيها الناس ! إني والله لأحتجّ على ما تهمون به من إلصاق تهم بالكيان الطيب الذّكر قد تكون باطلة من أساسها " ⁴ .

هكذا كان التعارض بين فكرتين ومبدأين خلفهما الكائن الغريب بين شباب المحروسة المحمية البيضاء بعد اندحاره.

¹ الطوفان المصدر السابق ، ص 348 .

² المصدر نفسه ، ص 349-350.

³ المصدر نفسه ، ص 83-84.

⁴ المصدر نفسه ، ص 133

الفصل الثالث

إنّ هذا الاختلاف الايديولوجي والتاريخي دفع بالكاتب إلى إقامة محكمة أخلاقية للاستعمار علّه يدينه على جرائمه البشعة التي اقترفها في حق أهالي الجزائر أمام تنكّر التاريخ والمنظّمات العالمية بإيعاز من الدولة المستعمرة .

"تعودّ فتيان مدينة الأبطال السمرء على أن يعقدوا مجالس لهم ليلية للسمر والإنتداء تحت الشجرة العظيمة الدّهماء في سفح أحد جبال الأوراس السماء (...) يتناشدون الأشعار (...) ويتحاكون الحكايات الواقعية والخرافية (...) يتدارسون مسائل من العلم مبسّطة، ويتناقشون شؤوننا من التاريخ متنوعة "1.

كان الفتية على تفاوت سنّهم، وتفاوت مستواهم الثقافي والعلمي فمنهم من درس الطب والعلوم الدقيقة ومنهم القانوني والأديب ومنهم من درس اللغات الأجنبية الحية ومنهم من كان ينتمي إلى حزب سياسي ومنهم من درس في جامعات الكائن الغريب الدار، يجتمعون تحت الشجرة الدهماء تنوعت أسماؤهم فهذا – يعقوب الباريسي – والمهرج الظريف – الذي كان يتمتع الجلساء من الفتية في خرجته ونكته وهو الذي ادعى لكل أديب شيطان يوحى له بالإبداع وقد ذكر اسمه بعد إلحاح الفتية عليه " إن اسمه ... لأذكره وأمرى الله تعالى ! إن اسمه الغريب هو "شغروطايطاحيعهصقخ... "2 وكان من الفتية جبور – وجلول بالإضافة إلى يعقوب والمهرج الظريف، وأمام هذا الوضع بين جلساء الشجرة الدّهماء واحترام المواقف وتضاربها راح " الشيخ الضرير "3 يقطع الشك باليقين في إجراء المحاكمة التي فرضتها الوقائع والخلافات بين القناعات والتوجهات السياسية والعقائدية والاجتماعية .

أطراف القضية

(الشيخ الضرير)

رئيس المحكمة

المحروسة المحمية البيضاء

المدعي

الكائن الغريب العنيد

المدعي عليه

(يعقوب الباريسي)

(المحامي جبور)

عريضة الاتهام: " سيدي الرئيس ! إن آبائي وأجدادي وأمّهاتي وجداتي، إن كل سكان المحروسة المحمية البيضاء، طوال مائة واثنين وثلاثين حولاً كريّتا: عانوا الظلم عناء شديداً وتجرعوا الذل (...) أهينوا بتمريغ أنوفهم في الرغام وتدّيس كرامتهم بالاستخفاف والاستهتار، فتنوا في عقيدتهم الدينية فوق التضييق عليهم في المساجد والجوامع (...) منعوا

1 الخلاص، المصدر السابق، ص 05 .

2 المصدر نفسه، ص 50 .

3 المصدر نفسه، ص 135 .

الفصل الثالث

من الاختلاف إلى معاهد العلم فأمسوا جهلا (...) اغتصبت منهم أراضيهم فوزعت على قوم غرباء (...) كما اغتصبت أمهاتنا وبناتنا وأخواتنا في مدينة الجدار ، وسوائها من مدائننا وقرانا (...) كما عذبنا وأهنا فقطعت معاصمهن بأسوارها ، وأدانهم برعاثها ، (...) فبيعت في الأسواق بأبخس الأثمان ! لقد إضن إيماء وجواري يخدمن غرباء أوروبا وصعاليكها (...) بعد أن كن عزيزات كريمات (...) أما آباؤنا فويلي عليهم من الكيان الغريب الدار ! لقد قتلوا دون محاكمة وكثيرا ما أبيدوا إبادة جماعية ونفوا إلى أدغال إفريقيا ظلما أو إلى بلدان غريبة بعيدة عنهم لا يعرفونها (...) كما فعل بالذين نفوا إلى جزيرة كاليد ونيما الجديدة فلم يعودوا قط إلى أهلهم في المحروسة المحمية البيضاء ، فانقطع نسبهم وماتوا هناك غرباء ! آباؤنا وأجدادنا الأكرمون استخدموا استخدام العبيد في مزارع الغرباء (...) بأدنى الأجور وأبخسها فكانت عمالة الرجل الواحد منهم في اليوم لا تكفي لقوت فرد واحد من أسرته (..) فشاع الفقر وتفاقم المرض واستفحل الجهل وانتشر الظلم واشتد البلاء وعمّ الشقاء ! من أول وهلة احتل فيها المحروسة المحمية البيضاء أرض آباءنا وأجدادنا الأكرمين (...) لقد عمد الكيان الغريب الدار إلى لغة آبائي وأجدادي فقلص من انتشارها بين المواطنين وقام في وجه تطورها بإغلاق المدارس إما بقتل معلّميها أو بسجنهم واضطهادهم (...) بل حاول طمسها من كل أصقاع المحروسة المحمية البيضاء فاستحالت من لغة العلوم والطب والرياضيات التي كانت يوم احتلنا إلى مجرد لغة ركيكة لكتابة الحروز وتأبين الموتى (...) اضطهد وقتل الذين كانوا يتكلمون بتدريسها (...) بل غال في قمعهم بالقتل والتعذيب ولم يراع حقوقهم الوطنية ولا الدينية ولا الإنسانية ولا السياسية ، فأصار الرجال من آباءنا عبيدا كما أصار النساء من أمهاتنا إماءا (...) لقد حرّمهم حق المقاومة وحق استرجاع السيادة الوطنية دهرًا طويلا (...) أفقدهم هويتهم وحرّمهم جنسيتهم (...) وهذه جريمة ترقى إلى مستوى الجرائم في حق الإنسانية (...) وعلى أن الكائن الغريب الدار حين منح الجنسية لشعبي لم يمنحه معها شيئا من الإمتيازات أصلا بل احتال على ذلك احتيالا لئىما (...) كما ساق عددا مهولا إلى الحربين العالميتين المسعورتين وحرب فيتنام فهلكوا هناك سدى (...) إن الجرائم التي اقترفها الكيان الغريب الدار في المحروسة المحمية البيضاء ضد شعب المسالم الأعزل فضيحة لا توصف وكثيرة لا تحصى (...) لذلك أترك تقدير كل ذلك لكم وأنتم قد تكونون التاريخ نفسه مجسما ومجسدا للحكم على الكيان الغريب الدار وما اقترفه من جرائم فظيعة شنيعة في حق الإنسانية أثناء وجوده المقيت بيننا : بما ترونه من الحق في ذلك انصافا وعدلا¹ .

- عريضة الدفاع : ويمثلها يعقوب الباريسي " فهو ملكي في الحقيقة في ذلك أكثر من الملك"² .

¹ الخلاص ، المصدر السابق ، ص 139، 138، 137، 136، 135 .

² المصدر نفسه ، ص 134 .

بعدما أذن له الشيخ الضّرير شرع في الدفاع عن الكيان الغريب الدار " سيدي الرئيس ! إن في ما قال الادّعاء في حق صاحب الكيان الطيب الذكر لشيئا من المبالغة والذاتية ، يقينا ، بل ربما نحس في ادعائه شيئا من "الشوفينية " النكراء ! وإن أول ما أود أن يصحّح مما ادعاه لهو تلقيبه صاحبي بلقب لا يليق بمقامه الأعلى وهو : - الكيان الغريب الدار - تحاملا وتطاولا : فإني لأرفض هذا التلقيب المسيء إلى من افترضتم أنه موكلي (...) فإنما الغريب الدار هو من يأتيك فيبيت في بيتك ليلة أو لياالي أو حتى شهرا ثم يمضي إلى شأنه إلى حيث أهله .

أما صاحبي فقد تأنف بالمحروسة المحمية البيضاء حقبا طويلة فتبتك بين ظهراني آبائنا وأجدادنا الأكرمين ، مائة واثنين وثلاثين حولاً كريتا ، فكان في هذه الفترة الطويلة ، هو السّيد وهو القيم وهو السلطان الأعلى (...) أفيجوز بعد كل ذلك أن يقال لمثل هذا الكيان الطيب الذكر (..) الكيان الغريب الدار ؟ ! أليس هذا من لغو القول واضطراب العقل؟ من أجل ذلك أطلب سيادتكم بأن تحكموا لصالح قضيتي بتصحيح اللقب المسيء إلى اللقب الدال على التسامح الذي أقترحه له . (...) أما الأمر الثاني فإن الادّعاء لا يزال يتهم الكيان الطيب الذكر بالتهمة الباطلة وبأنه قتل وعدّب وهدم ودمّر ، والحال ، المدعي نفسه ليس له من السنّ إلا زهاء خمسة وثلاثين عاما أو أدنى من ذلك عمرا ، فهل كان حاضرا فيشهد اليوم على المدعي عليه بمشاهد زورا (...) إني أطلب بالتحقيق في هذه الدعوى التي أراها باطلة (...) إنّ كل ما في الأمر أنها أخبار منقولة وشائعات مروية يرويها الأصاغر عن الأكابر من عوام الناس (...) لتضخيم الشيء الواحد إلى أشياء كثيرة وليجعل من الثلاثة قتلى ، ثلاثة آلاف أو يزيدون عدا ، فلو توقفنا لدى قضية واحدة وهي مجازر الثامن مايو مثلا وما قيل عنها وكتب فيها لوجدنا اختلافا شنيعا في تحديد أعداد الضحايا من مؤرخي الفئتين اثنتين ، هنا وهناك ، أو حتى من مؤرخي الفئات الأخرى (....) ثمانين ألفا (...) خمسة وأربعين ألفا (...) ست وستين ألفا (...) أما الرواية الصحيحة الرسمية للكيان الطيب الذكر ، وهو الصادق الصدوق الذي لا يأتي مكتوباته الباطل من بين يديها ولا من خلفها فهي لا تتجاوز بعدد الضحايا ثلاثة آلاف على التقدير الأقصى ! أنا أميل، سيدي الرئيس، إلى الكيان الطيب الذكر كان منصفاً رحيماً متسامحاً في هذه الأحداث فلم يقتل من أبناء المحروسة المحمية البيضاء إلا خلقاً قليلاً ! أما ما قدمه الادعاء عن قضية تبديل اللغة غير اللغة ، فليس ذلك سيدي الرئيس ، صحيحاً ولا سليماً أيضاً والآية على ذلك أن أهل المحروسة المحمية البيضاء ظلوا طوال وجود الكيان الطيب الذكر يتحدثون لغتهم فيتفاهمون بهما من أقصى المحروسة إلى أقصاها (...) وإني أقول لصاحبي الذي ادّعى على الكيان الطيب الذكر ما ادّعى وأنه دمّر اللغة الوطنية وخنقها : لقد ورثتموها في عهد الاستقلال لغة كتابة حروز و لغة تأبين موتى (...) وإلا فماذا تكونون قد ورثتم من صاحبي الكيان الطيب الذكر إن لم تجعلوا لغته الأنيقة لكم مغنما (...) سيدي الرئيس ، أنا لا أنكر أن الكيان الطيب الذكر لإيلافه

الفصل الثالث

المحروسة المحمية البيضاء واستطابته العيش الرغيد فيها ، غالى في قتل الأهالي وبالغ في تشريدهم كل مشرد فدك عليهم الديار وقطع منهم الأدبار ! ولكن ما أريد أن أعترض عليه هو المبالغة في ذم الكيان الطيب الذكر الذي لا ننسى أنه كان أول من جعل الحرية ركنا في دستوره فشاعت بين البشرية جمعاء ... قاطعه جبور المدعي قائلا : ولو لم يكن الدفاع جاهلا لكان ذكر قول الفاروق قديما : " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا " ؟! فهذا الدستور الأول الخارج بتأسيس الحرية بين البشرية طرا "1.

وبعد انتهاء الادعاء والدفاع من مرافعتهم نطق الشيخ الضرير رئيس المحكمة " سيخلو أعضاء المحكمة إذا للتداول قبل العودة لتلاوة الحكم "2

هيا المهرج الظريف الكوخ وأعدّه إعدادا حسنا وتوجه أعضاء المحكمة إليه وجلسوا، وبقي فتيان المدينة السّمراء تحت الشجرة الدهماء ينتظرون منطوق الحكم الأخلاقي .

وبعد التداول استعرض أعضاء المحكمة الحكم النهائي.

قال الرئيس : " لقد سمعتم أيها السادة الأعضاء ما ادعاه الادعاء وما رافع به الدفاع عن الكيان الغريب الدار وأعتقد أنكم اخذتم فكرة واضحة عن هذه القضية وأريد أن أسمع منكم واحدا واحدا . نعم الحق بيّن ، والباطل بيّن لم يكد يصنع الدفاع شيئا ، وأرى أن الكيان الغريب الدار ارتكب في المحروسة المحمية البيضاء جرائم على غاية من الفظاعة في حق الإنسانية ولذلك أرى بأنه يدان على جرائمه ويجب عليه أن يعوّض المحروسة المحمية البيضاء على ما استباح من حرّمات واستلب من أراض لملاكها ، وما هدم من ديار على أصحابها وما نهب من أموال فلم يكن في كل ذلك متورعا (...) إلى ضرورة تقديم الاعتذار رسميا إلى شعب المحروسة المحمية البيضاء الذي ثبت تاريخيا قتل الملايين منه عبر فترة احتلاله المقيت، قال أحد الأعضاء: وأنا موافق على ما قال زميلي وأراه عين الحق "3.وافق الجميع على المداولات وتلى الشيخ الضرير منطوق الحكم على الجميع " امتنع لون وجه يعقوب في صوت متهيج بالانفعال ، هادر كسيل الماء الكدر المنساب نحو التلاع الدنيا لا صلة لهذا الحكم الذي أصدرته المحكمة الأخلاقية بالقانون الدولي ولا بالشرعية الدولية التي يستنها مجلس الأمم الأعظم في القارة القصوى ، فلأول مرة يدان عضو في ذلك المجلس السيادي الدولي العظيم وهذا مردود من أساسه جملة وتفصيلا إذ تلك الدول وخصوصا الثلاث منها لا يحق لإنسان على الأرض أن يحكم عليها أو يسيء إلى جيوشها أو يحاكم أحد مواطنيها مهما اقترفوا من جرائم إذ رفع عنهم القلم وطويت من أجلهم الصفائف "4

1 الخلاص ، المصدر السابق ، ص 139 إلى 148 .

2 المصدر نفسه ، ص : 149 .

3 المصدر نفسه ، ص 149 .

4 المصدر نفسه ، ص 150 .

إن هذه المحكمة لم تكن إلا خلاصة التوجهات الإيديولوجية والفكرية المتمخضة عن صراع الأجيال والأفكار، أنتجتها مخيلة المؤلف، لجعل الروائي في خدمة التاريخ الرسمي فقد ألبس الكاتب التاريخ ثوب الحقيقة والواقع عن طريق أطراف القضية وتمت إدانة الاستعمار وكشف الحقائق التي طالما تحرّج منها المؤرخون والسياسيون .

2-4 - تلبيس الروائي بالتاريخي و جلاء الصورة.

" ما التاريخ ؟ وما معنى التاريخ ؟ هل يأخذ التأويل في التاريخ في المنظور الروائي العربي بصفة المفرد أم أنه وبسبب ماهيته مفرد وجمع في آن واحد؟ لن يكون التاريخ في المنظور الروائي إلا الراهن، طالما أن معنى التاريخ في الرواية هو معنى الإنسان " ¹.

إذا سلمنا أن التاريخ بالمنظور الروائي مفرداً أو جمعا ، لن يكون إلا الراهن ، في علاقة تمتد في الماضي إلى المستقبل، لأن الذي يصنع التاريخ هو الإنسان ، والإنسان هو مصدر كل الأفعال خيرها وشرها ، وهي الفلسفة التي يقوم عليها العمل الروائي والذي بدوره تستند عليه الرواية التاريخية .

وعليه فإن تلبيس الروائي بالتاريخي منحى اعتمده الكثير من الروائيين الجزائريين لجلاء الصورة وتبيان الحقائق التاريخية التي كثيرا ما تغاضى عنها المؤرخون ، وإعادة تركيب الحياة كما يجب أن تكون بنبش الماضي لثسائل الحاضر وتتنبأ بالمستقبل ، إذ يمكننا القول أن التخيل الروائي يجلي الصورة الحقيقية للحادثة التاريخية كاستراتيجية جديدة للفضاء الروائي يحاول المبدعون للرواية التاريخية من خلاله حقن التاريخ بجرعات تراثية وثقافية ودينية ، ليتمكن المؤرخون من وصل الحلقات المفقودة واستبدالها بالفرضيات التاريخية .

وسواء كان المنظور الروائي بصيغة المفرد أو الجمع فإن التخيل السردي الذي يعتمد الوقائع التاريخية كمرجعية للإبداع يحاول أن يثبت الصورة ويجليها جلاء سليما ليثبتها في عقول القراء .

فالتصور المتلاحقة للتخيّل الروائي السردى المفعمة بالعجائبية في الحكى أو بالاتكاء على التاريخ الرسمي أو الميل إلى الأخذ بالعوامل الدينية أو إثارة الذاكرة الجمعية كل ذلك من العناصر التي شكّلت استراتيجية التخيل السردى في ثلاثية الجزائر لـ عبد المالك مرتاض – خاصة منها الجزء الثالث الموسوم بـ - الخلاص - الذي هو رمز الانعتاق من العبودية وشئى والظلم والقهر .

إن تلبيس الروائي بالتاريخي نجده في كل زوايا الثلاثية كما أشرنا إليه سابقا في حديثنا عن عجائبية - الأم زينب - و- الأمير والأمواج - و - الصخرة العجرودية -

¹ د. فيصل دراج ، الرواية وتأويل التاريخ ، نظري الرواية والرواية العربية ، المركز الثقافي العربي ، ص 366 .

وغيرهما ... ! وقد أثرنا التركيز في هذا العنصر على جلاء صورة – القائد الشهيد - بن بولعيد مصطفى – هذا القائد المغوار الذي لم ينصفه التاريخ كغيره من القادة من أمثال - عميروش ، وسي الحواس ، ولطفي - وغيرهم و رواية الخلاص قد أنصفته أخلاقيا وتاريخيا وهذا حسب رأينا مع قلة تمرّسنا، فكيف إذا و الحال كذلك ؟ هذ التساؤل نستقدمه من غيرنا : " يمكن للكتابة الروائية أن تجيب روائيا عن السؤال الغائب عنها ؟ " ¹ وهنا يطرح السؤال المركزي والمقصدي من وراء استراتيجية تلبيس الروائي بالتاريخ : كيف يمكن للروائي أن يكشف عن الحقيقة التاريخية ويقدمها للقارئ ليقنعه بها أو على الأقل ليستأنس بها ؟

للإجابة عن هذا الإشكال النقدي علينا بالعودة إلى المتن الحكائي الذي لَوّن به الكاتب قصة القائد الفتى المغوار مصطفى .

سلّط المؤلف الضوء وكشف الغطاء عن مصطفى وهو يكدح في ديار الكائن الغريب العنيد من أجل الاسترزاق وهو يحاور صديقه بشير " أم يرضيك يابشي أن تنام أنا وأنت على سرير واحد وكأنا زوجان عشرين معا ؟! فقد يستكف الرجل من أن يقترب من رجل آخر على مدى خطوات طولى ، فكيف وهو يضاجعه على سرير واحد ، فعل الحليلين ، فيحس نفسه وهو يتشمم ريح جسده ولكن رغبة من كل ذلك وكرها ².

استحضر مصطفى مع رفيقه بشير كل الصور التي صنعت منه مصطفى الثائر على الكائن الغريب العنيد " كنت أرى وأنا أختلف إلى المدرسة أو أتردد على السوق أن أطفالهم أنظف من أطفالنا وأن بناتهم أنقى من بناتنا لباسا ، كانت آثار النعمة والنعمة بادية على وجوههم ذكرانا وإناثا (...) لقد باكرني يابشي الشقاء من أجل ما كنت أرى صغيرا ، فسعادتهم هي التي علّمتني كيف أتحمس الشقاء وحريتهم التي كانوا يتبنّون فيها هي التي حملتني على أن أضيق بالعبودية ذرعا، فبضدها تتمايز الأشياء؟! " ³.

كان ' بشير ' يسمعه كالمعتوه، تتطاير الحيرة من أصلابه وملامح وجهه ورد قائلا: " أنا ، الحق أقول : لا ! إني لا أذكر أنني كنت أفكر في هذا الأمر من قريب أو بعيد وكأني كنت أرى الأمور طبيعية في المحروسة لا تحتاج إلى كل هذا العناء الذهني الذي لا يفضي إلا للعناء " ⁴.

¹ د ، بمنة العيد . المرجع السابق، ص 71 .

² الخلاص، المصدر السابق، ص 285 .

³ المصدر نفسه، ص 289 .

⁴ المصدر نفسه ، ص 290.

الفصل الثالث

كان بشير قد أمضى طفولته لهوا ولعبا، أما مصطفى فأمضاها شقاء وعناء فقد غرس فيه أبوه " شعلة الوجدان الوطني المتوهج " ¹، فشتان بين حياة بشير وحياة مصطفى ، و قد مضى المؤلف في استجلاء صورة مصطفى الطفل والشاب وهو يكدح في معامل الكائن الغريب العنيد " وقد تمرس بانخراطه في العمل النقابي ، الأمر الذي مكنه من كسب ثقافة نقابية وخبرة في ميدان التنظيم والتعرف على المجتمع الفرنسي والاضاع الاقتصادية والسياسية وذلك قبل عودته إلى الوطن سنة 1938 م ².

لقد بنى المؤلف صورة المتخيل السردى على الحقائق التاريخية ومصادرها الرسمية عله في ذلك يريد أن يعطي مصداقية للحوادث التاريخية بتوظيف التخيل ، وربما ليصير المتخيل واقعا، والواقع متخيلا للاعتماد على التاريخ الشفوي لحياة البطل - مصطفى بن بولعيد - ، وقد اعترف محمد أركون على العجيب المدهش أو استخلاصه في الأدب لأنه " فيما وراء متعة الرضا والفضول وكل المشاعر التي توفرها لنا القصة أو الحكايات والخرافات ، وفيما وراء الحاجة إلى التسلي والمتعة والنسيان والتوصل إلى أحاسيس لذية ومرعبة ، فيما وراء كل ذلك فإن الهدف الحقيقي للرحلة العجائبية يكمن هنا (أي في الأدب) في الاستكشاف الأكثر كلية للحقيقة الكونية " ³.

وأمام هذا المفهوم وما زاد في عجائبية الصورة وجلائها، وباستحضار التقاليد الدقيقة في حياة الثائر مصطفى والمخاطر التي ألمّت به أثناء الثورة التحريرية المباركة - ثورة الخلاص الوطني - ، وقد أبدع المؤلف في صنع جمالية خالصة لحياة هذا الشهيد البطل وهو يترصد تفاصيل حياته والتعبير عن إيمانه بضرورة قيام ثورة مسلحة يقودها الشعب الجزائري ضد الغزاة المحتلين ، قد خاطب مصطفى ، بشير بقوله : " ألم أقل لك قبلا أن الطوفان الذي يكتسح الأراضي قد يبدأ بقطرة واحدة تهتن من السماء " ⁴.

إن الثائر - مصطفى - في التاريخ هو قائد ميداني ، تسلح بفكر ثوري قائد منذ طفولته متشبع بمبادئ الأمة فهو الشغوف والمتأمل بما يحيط به من تناقضات وأضداد لم تثنه على مباشرة التحرير والخلاص الوطني " إنا نريد التحرير ، تحرير المحروسة المحمية البيضاء من نشقة الذل وقيد العبودية وربقة الشقاء " ⁵.

لقد حمل التخيل السردى على كاهله التاريخ في استجلاء صورة مصطفى وهو يكافح بفكره و عقله ويعاني معاناة داخلية لا يشعر بها إلا من كان يؤمن بالقضية التي يحملها بين جنباته

¹ الخلاص ، المصدر السابق ، ص 291.

² الشيخ محمد الواعي ، حياة الشهيد مصطفى بن بولعيد في كتاب " مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية ، ص 647 نقلا عن الخلاص ص 294 .

³ دراسات جزائرية ، في تفكيك عوامل العجيب والغريب ، دورية يصدرها مختبر الخطاب الأدبي في الجزائر ، جامعة وهران ص 187 .

⁴ الخلاص، المصدر السابق ، ص 297 .

⁵ المصدر نفسه ، ص 299 .

الفصل الثالث

فاستحضر في لحظة من لحظات التاريخ ، الثورات والمقاومات السَّالفة وقد ذهب به إلى خياله إلى التغني بالمحروسة المحمية البيضاء " عزيزتي ، محروستي ، معشوقتي ، حبيبتي ، أميمتي أنا وأصحابي لن نتركك مقيدة بأغلال الكيان الغريب الدار بذلك إذلالا ، بل يستعبدك استعبادا ، لن نتركك أبدا . أبشري ، محروستي ، حبيبتي ، معشوقتي ، أميمتي البيضاء ، الخضراء ! فقد حان وقت الخلاص ، ودنا ، فصبرا ، قليلا ، فكأنه سيكون غدا ... بل كأنه كان أمساً ! ... " ¹

اتكاء على الظاهر الفارغ والمرجع المحتجب بنى - عبد الملك مرتاض - تفاصيل حديثه عن حياة البطل - مصطفى الثائر - فألبسه ثوب الشاعرية في المقطع السابق وهو يتغنى بمعشوقته المحمية البيضاء التي جرت في مشاعره مجرى الدم في العروق ، ولا ينتهي الأمر عند هذا الحد من التلبس في جلاء الصورة والتي عجز التاريخ عن استجلائها ، حيث جاءت الليلة التي انتظرها مصطفى ومن ورائه شعب المحروسة المحمية البيضاء " وتحل الليلة الليلية ، فعلا ويا لها ! جاءت كالقدر الزاحف الذي يوشك أن يغيّر كل ما في الكون، (...) تحلّ لتجدد شباب المحروسة الحبيبة المحمية البيضاء ليرتد وجهها الملائكي ناضرا " ².

ظل مصطفى على ثورته وهو يحرض النَّاس على القتال، فهبوا متسارعين إلى حمل السلاح " أدرك - مصطفى الثائر - في تلك اللحظة العظيمة من التاريخ أنّ الثورة التي ظل يحلم بها منذ عهد الصبا ، ها هي ذي تشتعل فتضطرم ولن تخمد جذوة نارها (...) أدرك أن كل ما نهض به الآباء الأكرمون من مقاومات جاوزت العشرين عددا ، قبل تلك الليلة العظمى ، لم يك إلا مجرد تقدمات لثورة الخلاص الكبرى " ³.

في هذه الليلة التاريخية العظيمة تجلت صورة البطل وحكاية الثورة والشهيد والإيمان بالقدر المحتوم : " اللهم رب اجعل دمي هبة لهذا الوطن العظيم وأمتني فيه شهيدا " ⁴.

إنّ كلّ هذه التفاصيل التي اتكأ عليها المؤلف كانت غاية منها إلباس الأحداث التاريخية ثوب التخيل الروائي والوصول إلى المقصدية الروائية والجمالية الفنية، فاستنطق التاريخ في لحظة حاسمة " ثم انفجر - مصطفى الثائر - بالدموع باكيا ، حين سمع صوت الرصاص صوت أقرب عملية فدائية من موقعه حيث كان متحنّثا لله متضرعا " ⁵.

وها هو المؤلف على لسان الأم زينب يكشف عن المستور والمغيّب في كتب التاريخ ويستند على الحكاية لبناء هرم الرواية وحنفوانها التخيلي وجمالياتها الفنية " ولماذا جعل الله الحكاية والتاريخ مختلفين ، فإنما جعلهما كذلك ليتكامل - التاريخ الرسمي يا أولاد ، ولا يستطيع أن

¹ الخلاص المصدر السابق ، ص 306 .

² المصدر نفسه ، ص 337 .

³ المصدر نفسه ، ص 332 .

⁴ المصدر نفسه ، ص 338 .

⁵ المصدر نفسه ، ص 339 .

الفصل الثالث

يتخيل الأمور فيما وراء الأخبار الشحيحة المضطربة المسجلة بالكتاب تسجيلا ، وهو بذلك لا يشبع جائعا ولا يروي ضامنا ... لو كان التاريخ يكتب كل تفاصيل أعمال الناس وأقوالهم لكان ملأ ما بين الأرض والسماء أسفارا ... والحق أن خيالي ، أنا أيضا ، لم يك خصيبا ولا مجنحا وإلا لكنت رويت لكم كثيرا من أخبار مصطفى الثائر وأصحابه الشجعان مما لا يمكن استنفاده إلا في ليالي لا تحصى عددا ¹.

وامتدّت الأحداث في حياة مصطفى الثائر وهو مزهو بانطلاق ثورة الخلاص الوطني يباركها ويسعى في استمراريتها فألقي عليه القبض أثناء قيامه بجلب السلاح لتزويد واستقواء الثورة الجزائرية ، فزج به في السجن ونقل إلى - مدينة الجسور المعلقة بأسباب السماء - وتم تهريبه من زنزانتة ، إذ عمد المؤلف إلى استنطاق الحدث التاريخي الذي أبان عن عبقرية الثورة الجزائرية بتوظيف التخيل ورسم المشهد - "TABLEAU" ² . وهو يصف الأحداث " خرج مصطفى الثائر وهو لا يصدق ما جرى ، وكيف استحال اليأس إلى رجاء ؟ وذلك بعد أن فتح له الحارس ، زنزانتة ، فخلص منها مسرعا ، وما هو إلا أن يفاجأ بكيس ملفوف لم يدر مصطفى الثائر ما بداخله (...) أعيد مصطفى الثائر إلى الزنزانة ، فلما فتح الكيس ، ألقى فيه بدلة عسكرية بدرجة ضابط درك الكيان الغريب الدار ، فعجب لذلك وعلم أن في الأمر سرا عظيما ³ "

و امتد التخيل إلى ثنايا حياة مصطفى الشهيد وهو يغادر السجن ملتحقا بالثورة إلى أن جاءت اللحظة التي انتظرها طويلا وهي لحظة - اللقاء والفراق - " فقد كان الكيان الغريب الدار يتابعه من بعيد ، فكان يدبر له خطط الاغتيال بواسطة الخائنين من بعض من كان يثق فيهم من المقربين منهم وما درى فانفجر عليه مذياع فخر مصطفى الثائر شهيدا ⁴ "

هكذا استلهم المؤلف الحادث التاريخي الذي أودى بحياة الشهيد مصطفى بن بولعيد رحمه الله - استلهم - ليمدد التاريخ ويركبه بالتخيل فقد أضاف على الحوادث التاريخية الكثير من المخيالية السردية واستنطق التاريخ الشفوي الذي كثيرا ما سكت عنه المؤرخون في كتاباتهم بالجمع بين التاريخي و التخيلي ، و جعل هذا الأخير في خدمة الأول معتمدا التاريخ الشفوي المسكت عنه لعوامل عديدة قد تكون ذاتية أحيانا و موضوعية في أحيان أخرى .

¹ الخلاص ، المصدر السابق ، ص 339.

² لعرج واسيني ، شغف الكتابة ، المركز الوطني للبحث والأنثروبولوجيا الإجتماعية ، منشورات CRASC ، ص 71

³ الخلاص ، المصدر السابق ، ص 363 .

⁴ المصدر نفسه ، ص : 363 .

اختار

الخاتمة

تناول هذا البحث إشكالية التاريخي والتّخيلي والعلاقة الموجودة بينهما وكذا مقصدية التّزاوج والتّراكب بين الواقع والخيال في البناء السّردي للرّواية من منظور معرفي نقدي، كما يظهر حدود التفاعل بينهما إذ كانت ثلاثية الجزائر للمؤلف - عبد الملك مرتاض - محورا أساسيا لهذا البحث والذي يقوم على أساس إضفاء التّخيلي على السرد التاريخي واستحضار الموروث الشّفوي الذي أهمله التاريخ الرّسمي لأسباب إيديولوجية بحتة .

ووفق هذه الإشكالية حاولنا ومن خلال هذه الدراسة إثارة بعض الأسئلة المعرفية والمتمثلة فيما يلي:

- ما علاقة الرواية بالتاريخ؟ وهل هي علاقة توافق وتكامل أم علاقة تنافر وتباعد؟
- وهل التّراكب بين الرّواية والتّاريخ يكونان اللّحظة الرّوائية؟
- وكيف تحافظ الرّواية على عنصر الرّوائية وهي توظف التّاريخ؟
- وما مدى تلبس الرّوائي بالتّاريخي، وهل حقّق الكاتب من ورائه عنصر المقصدية الرّوائية من وراء ذلك؟

إنّ هذه الأسئلة النّقدية و أخرى حاولنا - قدر الإمكان - الإجابة عنها من خلال وقوفنا على ثلاثية الجزائر للأديب - عبد الملك مرتاض - وهي قراءة للتّاريخ من خلال الرواية ، تتبّع تطور المجتمع الجزائري في علاقته بالآخر بداية من مرحلة الغزو الإسباني إلى مرحلة العدوان الفرنسي وانتهاء بمرحلة الثّورة الجزائرية المباركة وقد خلّصت هذه الدراسة إلى النتائج الآتية :

- تتعامل الثّلاثية كرواية تاريخية تعاملًا يسعى من خلاله الرّوائي إلى استحضار التّاريخ المغيّب والمسكت عنه، قصد إثارة اللّحظة الرّوائية التي تمكّن المتخيّل السّردي من وضعه المركزي والأساسي في الرواية.
- الارتكاز على ألّجانب كظاهرة سردية ترتبط بالتّخيل لتوسيع دائرة الإبداع والخيال الذي يسعى إلى تثبيت الحقائق التّاريخية من أجل إحداث رؤية مغايرة لطبيعة العلاقات بين عناصر المجتمع في علاقته بالآخر عبر الأزمنة التّاريخية.
- وعي المبدع بأهمية توظيف التّاريخ في عملية الإبداع الأدبي فيجعله مادة أولية ينطلق منها ويضفي عليها صورا وخيالات جديدة تدفع بالعمل الرّوائي نحو الجمالية الفنية.
- التّأويل والقراءة المغايرة من خلال توظيف المتخيّل الذي يتجاوز الحوادث التّاريخية للوصول إلى المقصدية، وهذا ما لمسناه في الثّلاثية من خلال تجاوز الأحداث البارزة إلى إثارة الأحداث المغيبة في التاريخ خاصة تلك المتعلقة بالمؤامرات التي حبكت ضد الجزائر وكانت من الأسباب الخفية التي أدت إلى الاستعمار.

- اختصار المسافة بين الواقع التاريخي من جهة والعجائبي ةالتخيلي من جهة أخرى بهدف إبراز الحقيقة وهو ما تجسد في الثلاثية من خلال إبراز ملامح -الأم زينب - حاكية أخبار -المحروسة المحمية البيضاء في مسيرة زمنية تتجاوز عدة قرون.
- احتضان الرواية التاريخ لكنها من الصعب أن تبني كونا ووجودا تاريخيا يمنح للقارئ صفة الامتلاء والإقناع ومعايشة جوهر الأحداث الحقيقية وهي تحاور الأزمنة المتعاقبة والشخصيات التي صنعت الأحداث ، ففي كثير من الأحيان تأخذنا الرواية إلى عمق الماضي فنعيش اللحظة بحسّها الزمني التاريخي ، ولكن سرعان ما نفقد وجودنا الزمني بخروجنا منها ، وهذا ما تجسد في الثلاثية في الجزء الثاني - الطوفان - في لحظة تأمر اليهود للإطاحة بالأغا - يحيى - واستبداله بصهر الحاكم الأغا - إبراهيم - هذا الأخير الذي عرف بسذاجته وقلّة حنكته في إدارة شؤون الحرب .
- استناد الكتابة الروائية في الثلاثية على العمق التاريخي القائم على إعادة تشكيل المادة الروائية تشكيلا يعتمد التاريخ كمرجع لصياغة الأحداث وبناء الفضاءات واستنتاج الشخصيات، وإعادة إحياء الفرضيات التاريخية مع النّش في الذاكرة الجماعية لإحياء المهمّش والمغيّب لربط حلقات التاريخ المفقودة بغية إعادة رسم الحاضر انطلاقا من الماضي.
- إنّ ما يسمّيه النقاد بـ - فانتازيا التاريخ - هو أن الرواية تبدع مناخا تاريخيا لا يستند إلى أحداث حقيقية ، ففي هذا الوضع يصير الخيال موطننا يستقر فيه التاريخ وذلك بخلق أحوال جديدة يمكن من خلالها فهم وقراءة التاريخ وكأن المتخيل السردى في هذا المقام يحول الكتابة الروائية إلى حالات وجودية حقيقة تقرّم الحدث التاريخي الرّسمي وتبجّل الحدث التاريخي المغيّب وهي اللّحظة التي أوردها الكاتب في الملحمة أثناء حديثه عن المقاومة الطويلة ضد الغزو الإسباني في محاولة أسر المدينة الفاضلة ومدينة مشتى الغنائم بين كرّ وفرّ وجهاد طويل ومرير أنهك الصّغير قبل الكبير وبذلك يكون الكاتب يتحسّس التاريخ في عمله ويتعامل معه تعاملًا تخييليا ما يعني أنّ الرواية في هذا المقام تقوم بتحويل هذا الواقع التاريخي إلى فضاء تخيلي أساسه الجانب الشفوي في سرد أحداث الرواية .
- لا تعارض بين التاريخي والروائي أو بين التّاريخي والتّخيلي لأن التّاريخي هو راصد للأحداث والتخيلي يحلق بها ويضفي عليها الطابع الجمالي ، وهو ما لمسناه في الثلاثية في الجمع بين الحقيقة التّاريخية ذات الطابع الرّسمي واللحظة الروائية ذات الطابع التّخيلي في جزء - الطوفان - من خلال صورة الأمير الثائر ضد العدوان الفرنسي ، تلك الصورة الجميلة التي رسمها له الكاتب وهو قائم يصلي فوق الصّخرة العجرودية المقابلة للبحر وهو يحاوره ويناجيه .
- إنّ إدراك حياة البشر يتم بطريقة أسهل حين تحدث أو يجري تمثيلها بالتّخييلات التّاريخية عن طريق السرد باعتبار أن التاريخ خطاب نفعي يسعى إلى الكشف عن

القواعد المتحكّمة في تتابع الأحداث أما الرواية فهي خطاب جمالي تؤثر فيه الوظيفة الجمالية على الوظيفة المرجعية ، وهذا ما أظهره المؤلف ببراعة فائقة في تصوير الأحداث التاريخية في الثلاثية من خلال إبراز ملامح الشخصيات التي صنعت الأحداث ك - لالة فاطمة نسومر - والأمير البطل عبد القادر - والشهيد الثائر مصطفى بن بولعيد - وما أضفى على ذلك من مخيال فتح به أفق القراءة والتأويل وإعادة كتابة التاريخ الحقيقي.

- أما على مستوى القراءة والتأويل فقد غلب على الثلاثية الجانب العجائبي رغم كثافة المادة المعرفية بالاستناد على الوثائق التاريخية حيث استند هذا العجائبي على الأحداث التاريخية التي شهدتها أرض المحروسة المحمية البيضاء ، على أنها أرض طاهرة زكية وبناتها من حسنات العالم بجمالهن وصفاء قلوبهن وطهارة أجسادهن وامتلاء نهودهن وخالص حليهن ، وفي مقابل هذا أرض الجزيرة الغربية العامرة بوحشها الكائن الغريب العنيد الذي يمثل كل عناصر القذارة ، على أنه كائن لا أصل له ولا فصل ، عاش بين حيوانات الغابة وتربى في أحضانها وامتلاً نفسه الغرائزية من شهواتها الحيوانية وهي إشارة إلى الاختلاف الموجود بين الشرق والغرب وحضارتهما .

- تمكين السرد العجائبي من مقصديته الروائية عن طريق الترميز ، و من القابلية للتأويل المتعدّد ممّا أعطى للعمل الروائي شرعية الانزياح اللغوي و الإبداعي ، فقد أظهر من خلاله المؤلف القيم المقدّسة لمدن الجزائر ، فمن المدينة الفاضلة - وهران - التي قسم لها حيّزا جغرافيا من جبل قاف العظيم (جبل الجمال و الجلال) إلى مدينة أم العساكر التاريخية التي نرى أنه يقصد بها مدينة - معسكر - فأخذ الجذر (ع س ك ر) و هو يشترك صوتيا مع المدينة و أضاف إليه كنية (أم) ليفتح الدلالة على تحويل اسم المكان إلى التضخيم في الحدث من الفعل (عسكر) ما يعني الكثرة إلى درجة العجائبية ، إلى مدينة مشتى الغنائم رمز المقاومة و الثبات ، إلى مدينة الجدار - تلمسان - التي اعتبرها المؤلف القرية المذكورة في القرآن بجدارها المقدّس في قصة موسى عليه السلام مع الخضر و هو الجدار الذي بناه ذو القرنين كفاصل بين الخير و الشرّ إلى أن تأتي لحظة زواله ، ثم المدينة المعلّقة بأسباب السماء - قسنطينة - و اعتبرها بانزياح من إبداعه على أنها مدينة مقدّسة علّقت في السماء لسموّ مكانتها و علوّ شأنها ، و أيضا من ذلك مدينة العناب - عنابة - و المدينة السّمرّاء - باتنة - رمز الثّورة المدويّة و التّضحية و الوفاء ، و كلّ ذلك تحت مظلة المحروسة المحية البيضاء - الجزائر - و اعتبرها أرضا طاهرة تحرسها أعين الجنّ و الإنس من أولياء الله الصالحين.

- عبّر المؤلف عن حسّه الوطني الخالص في تعلّقه بالجزائر فجعل من الرواية وسيلة لقلب موازين الواقع، واعتبر الاستعمار كارثة عظيمة فأسّس لإدانتها على جرائمه

محكمة ذات طابع أخلاقي مثل هياكلها من اتهام ودفاع شباب الجزائر بعد الاستقلال، محاولة منه عن طريق التخيل تحقيقا للإدانة التي عجزت عنها المحاكم الدولية والهيئات الأممية.

- براعة المؤلف في المزامنة بين الحاضر والماضي في مواقف معيّنة عن طريق التخيل العجائبي مستغلا الهالة التاريخية الرسمية لشخصية الأمير عبد القادر المعروفة بهيبته وعظمتها تاريخيا لذلك مدّ المؤلف جسر العظمة إلى الماضي مستغلا القواسم المشتركة بين شخصيات تراثية وشخصية الأمير في الرواية لتحوّلها إلى شخصية ذات عظمة عجائبية فيها من تقوى وشاعرية الشافعي، وفيها قدرا من نبوة موسى عليه السلام، وفيها من عزم سيبويه ، وفيها و تصوّف ابن عربي ، و كل هاته الشخصية يجمعها أهمّ قاسم مشترك مع الأمير حيث ذاقت مثله مرارة الخيبة و الاغتراب و ألم الانكسار في لحظة من حياتها.
- من كل هذا ومن غيره ممّا أغفلنا أو جهلنا شكّلت لنفسها مكانا وسط الرواية الجزائرية المعاصرة التي تشغل على التاريخ، كتاريخ وطني خالص أبرز فيه المؤلف الفراغات التي أهملها المؤرخون مبرزاً عظمة الشخصيات عن طريق مسارات المتخيّل السردى كاشفا عن موضوعات التاريخ الذي جسده الذهنيات والثقافات الممتدة عبر الأزمنة والأحداث.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أ - المصادر

- القرآن الكريم.
- د ، عبد الملك مرتاض، ثلاثية الجزائر ، الملحمة ، رواية في تجليات الوطن و اللغة ، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع ، الجزائر ، ط ، 2011.
- د، عبد الملك مرتاض ، ثلاثية الجزائر ، الطوفان ، رواية في عشق الوطن و اللغة ، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع ، الجزائر، ط ، 2011 .
- د، عبد الملك مرتاض ، ثلاثية الجزائر ، الخلاص ، رواية في عشق الوطن و تجليات اللغة ، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع ، الجزائر، ط ، 2011 .

ب- المراجع العربية :

- آمنة بلعلی ، المتخيل في الرواية الجزائرية من المتماثل إلى المختلف ، دار الأمل للصناعة والنشر والتوزيع، ط ، 2011 .
- محمد بن ادريس الشافعي، ديوان الشافعي ، مكتبة ابن سينا للنشر و التوزيع و التصدير ، القاهرة مصر ، ط 1 ، ب ت
- محمد الواعي الشيخ ، حياة الشهيد مصطفى بن بولعيد في كتاب مصطفى بن بولعيد والثورة الجزائرية ، د ت .

- جورج لوكاتش، الرواية التاريخية، تر: صالح جواد الكاظم، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العراق، ط ، 1986.
- جورج زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج4، مكتبة الحياة، بيروت ، ط ، 1979.
- جورج زيدان: الحجاج بن يوسف، المقدمة، دار الهلال، القاهرة، ط، 1989 .
- حلمي القاعود ، الرواية التاريخية، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة، مصر، ط ، 2004 .
- حميد الحميداني ،بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي) ، المركز الثقافي العربي للطباعة و النشر ، بيروت ، ط 1 ، 1991 .
- حسن نجمي ،شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية ، المركز الثقافي العربي للطباعة و النشر ، بيروت ، ط 1 ، 2000.
- يمنى العيد ، الرواية العربية ، المتخيل وبنيته الفنية ، دار الفارابي ، بيروت ، ط 1 ، 2011.
- مارون عبود، رواد النهضة العربية، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1952 .
- محمد عزام ، فضاء النص الروائي ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، اللاذقية ، ط 1 ، 1996 .
- نبيل راغب ، فن القصة عند يوسف السباعي ، مكتبة الخانجي للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، ط 1 ، 1998 .
- عبد الوهاب المسيري ، فتحي التريكي ، الحداثة وما بعد الحداثة ،دار الفكر للنشر والتوزيع ، دمشق ، ط ، 2003 .

- عبد الحميد عبد العظيم القط، بناء الرواية في الأدب المصري الحديث ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ، 1980 .
- عبد الله إبراهيم، السردية العربية ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط، 2003.
- عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، بحث في تقنيات الكتابة الروائية ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، د ت .
- - عبد الرحيم محمد عبد الرحيم، دراسات في الرواية العربية، دار الحقيقة للإعلام الدولي ، ط ، 91 .
- علي حرب ، نقد النص ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط2 ، 1995 .
- فائزة يخلف ، مناهج التحليل السيميائي ، دار الخلدونية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، ط 1، 2013 .
- فيصل دراج ، الرواية وتأويل التاريخ ، نظرية الرواية والرواية العربية ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط 1 ، 2004 .
- فليب فان تيغم، المذاهب الأدبية الكبرى في فرنسا، تر، فريد أنطونيوس، منشورات عويدان، بيروت، لبنان، ط ، 1967 .
- فريد الزاهي ، الحكاية والمتخيل ، إفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، ط 1 ، 1991 .
- قاسم عبده قاسم، الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، دار المعارف، القاهرة، ط، 1979.
- شعيب حليفي، شعرية الرواية الفانتاستيكية ، دار الحرف ، القنيطرة ، المغرب ، ط 2 ، 2007 .

- شفيق السيد ، اتجاهات الرواية العربية ، دار الفكر العربي ، دمشق ، ط ، 1973 .

- شفيق البقاعي ، أدب عصر النهضة ، دار الجيل ، بيروت ، ط 1 ، د ت .

- تزفيتين تودوروف ، مدخل إلى الأدب العجائبي، تر ، الصديق بوعلام ، مراجعة ، محمد برادة ، القاهرة ، دار الشقيقات ، ط ، 1994 .

- غنيمي هلال، الرومانتيكية، دار العودة، بيروت، ط6، 1981 .

ج- المراجع الأجنبية :

- Charles Grivel, Fantastique -fiction , 1 er édition , Mai 1992

- Denis mellier , La littérature Fantastiques , édition de seuil , 2000 .

- Encyclopédia britannica , Volume 16.

- ginnette girard , fiction et diction ,édition de seuil , paris , 1991 .

Marthe Robert , Roman des origines et origines du roman , Ed , gallimard , PARIS 1977 .

د- الدوريات :

- أحمد الجودة ، التفاعل التاريخي والروائي في كتاب الأمير لواسيني الأعرج ، المركز الوطني للبحث والأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية ، وهران .
- بشير بويجرة محمد ، المتن الروائي ، المخيال والمرجعية ، دراسات جزائرية ، دورية محكمة ، يصدرها الخطاب الأدبي في الجزائر ، جامعة وهران .
- هنية جوادي ، مجلة المخبر ، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري ، جامعة بسكرة ، الجزائر ، العدد العاشر 2014
- واسيني الاعرج ، شغف الكتابة ، المركز الوطني للبحث والأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية ، منشورات CRASC .
- حورية الظل ، الفضاء الروائي بين الواقعي و المتخيل ، المجلة العربية ، العدد 450 ، ماي 2014 .
- مريم جمعة فرج ، قراءة في الرواية التاريخية ، مجلة البيان ، العدد 46 ، 26 نوفمبر 2000 .
- سيار الجميل ، الفن الروائي التاريخي العربي ، البيان ، م ج 2 ، ع 2 ، ط ، 1999 .
- عبد الله إبراهيم ، التخيل التاريخي محل مصطلح الرواية التاريخية ، جريدة الايام العراقية ، العدد 5775 ، السنة السابعة عشرة .

- عبد الله الخطيب، الفضاء التاريخي في الرواية التاريخية ، بين علي أحمد باكثير و جورج زيدان، رابطة أدباء الشام ، مارس 2009 .
- عز الدين باي ، في الخطاب السردي ، دراسات جزائرية ، دورية محكمة يصدرها مختبر الخطاب الأدبي في الجزائر ، جامعة وهران.
- غالب غانم ، الأدب اللبناني المكتوب باللغة الفرنسية على امتداد القرن العشرين، مجلة العربي، العدد، 515، 2001/11/1.

هـ- المواقع الإلكترونية :

- <http://www.alarabimag.net>
- <http://www.albayan.com.ae>
- <http://www.lahaonline.com/index.php>
- <http://www.oudnad.net/spip.php?article1043#sthash.UDVyq6zY.dpuf>
- <http://www.meo.tv/id>
- 2010-2014 Almaany.com, All rights reserved. Privacy Policy - Terms of use
- <http://www.egyptana.egypty.com/egyptiancollection/stories>
- <http://www.odabasham.net/show.php?sid=25381>
- <http://www.albayan.com.ae>.

هـ - الرسائل :

- السعيد زعباط ، رواية _كتاب الأمير ، مسالك أبواب الحديد لواسيني الأعرج
بين الحقيقة التاريخية والمتخيل الروائي ، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في
الأدب الجزائري المعاصر ، إشراف الدكتور ، عبد السلام صحراوي ، كلية
الآداب واللغات ، قسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة منتوري ، قسنطينة ، 2010
- 2011 .
- بهاء بنّوار ، العجائبية في الرواية العربية المعاصرة مقارنة موضوعاتية تحليلية
أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في الأدب العربي الحديث ، جامعة
الحاج لخضر ، باتنة ، 2012-2013 .
- سليمة عداوري ، الرواية والتاريخ ، دراسة في العلاقات النصية ، رواية
العلامة بن سالم حميش نموذجاً ، مذكرة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي،
إشراف الأستاذ واسيني الأعرج، قسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة يوسف بخدة
الجزائر ، 2005 – 2006.
- أ، سليمان فاطمة، الشخصية التاريخية في الرواية الجزائرية وهوية الانتماء
إشراف الدكتور سعيدي محمد، كلية الآداب واللغات، جامعة أبو بكر بلقايد ،
تلمسان ، 2011 – 2012 .
- عبد الرزاق بن دحمان ، الرؤية التاريخية في الرواية الجزائرية المعاصرة ،
روايات الطاهر وطار أنموذجاً، دراسة تحليلية تفكيكية ، أطروحة مقدمة لنيل

شهادة دكتوراه العلوم في النقد الأدبي المعاصر، إشراف الدكتور الطيب بودربالة
، كلية الآداب واللغات ، جامعة حاج لخضر باتنة ، 2012 – 2013 .

و - المعاجم :

- معجم الوسيط ، ط4 ، مكتبة الشرق الدولية ، مصر ، 2004 .

الفهرس

الفهرس

الإهداء

التشكرات

المقدمة

المدخل.....07-13

الفصل الاول

1 - الرواية التاريخية 16

1-1 - المفهوم والمضمون.....16

1-2 - نشأة و تطور الرواية التاريخية الغربية.....18

1-3 - نشأة و تطور الرواية التاريخية العربية.....22

الفصل الثاني

2 - المجال التاريخي في الثلاثية 34

2-1 - التاريخ - المفهوم والمضمون 35

2-2 - الأحداث البارزة في الملحمة والطوفان.....37

2-3 - المقاومة والثبات 44

46.....4-2- التاريفي في رواية الالاص

الفصل الثالث

53.....3- المجال الروائي

57.....1-3 - الأم زينب والبال

59.....2-3 - الصورة العجائية للوحش الرهيب والحساء

62.....3-3 - مآيال الحوار التمللني والبهيمي

65.....4-3 - الأمير والموج والصخرة العآروبية

67 1-2-3 - المآيل السردي

69.....2-3 - 2 المآمة الأخلاقية والمآيل السردي

74.....3-2-3 - آلبيس الروائي بالآاريخي وآلاء الصورة

80.....الآائمة

85.....آائمة المصادر والمراجع

94.....الفهرس

ملخص

باتت الرواية التاريخية المعاصرة من الفنون النثرية السردية التي تعتمد التراكب بين التاريخي والتخييلي، كما يسعى كتابها إلى إبراز الغائب والمنسي في كتب التاريخ وإظهار الحقيقة التاريخية المغمورة.

وتعتبر ثلاثة الجزائريين للأديب -عبد الملك مرتاض- من الروايات التي حاولت مراعاة التاريخ للوصول إلى هدفين أساسيين هما: الكشف عن أغوار التاريخ وبعث المسكت عنه لإدانة الآخر، والوصول بالرواية التاريخية ككتابة سردية إلى غاية التبليغ المتمثلة في الجمالية والفنية.

واستطاع المؤلف بذلك أن يصل إلى الغاية والمقصدية التي سعى من ورائها إلى جمع تاريخ الجزائر الحديث في ثلاثة روايات موسومة بـ -الملحمة- الطوفان -الخلاص- فأبان فيها من خلال توظيف العجائبي ضمن المتن الحكائي عن عبقرية الشعب الجزائري في مقاومته للعدوان المتلاحق ابتداء من الغزو الأسباني ومرورا بالاحتلال الفرنسي وانتهاء بالثورة التحريرية الكبرى التي خلّصت الجزائريين من قيود الاستعمار الحديث بشتى ألوانه وأشكاله.

وبلغة السرد والتخييل استطاع المؤلف أن يلحق المرجعي التاريخي بالمقصد بالتخييلي، فكشف عن جوانب خفية في التاريخ الجزائري الحديث عجز المؤرخون عن البوح بها، باعثا من وراء ذلك الحس الوطني والقومي في قيم جمالية وفنية ضمن حقل عجائبي دلالي.

الكلمات المفتاحية:

التزاوج؛ التراكب؛ التفاعل؛ العجائبي؛ الروائي؛ الرواية التاريخية؛ التخييل التاريخي؛ السرد التخييلي؛ المتخيل؛ عبد الملك مرتاض.

نوقشت يوم 19 أبريل 2015